رواية
مكتبة ٣١٢
وارسو
قبل قليل
أحمد محسن

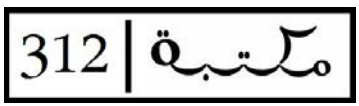

وارسو قبل قليل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2015
سنّ الفيل، حرج ثابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: © **مروان طحطح**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **Chemaly & Chemaly**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-234-9

مكتبة أحمد
٢٠١٨ ١١ ٢٣

رواية

مكتبة | 312

وارسو قبل قليل

أحمد محسن

telegram @ktabpdf

نوفل

الشخصيات التي في هذه الرواية حقيقيّة.

28 كانون الثاني 1945

«أوّل الواجبات، التدمير.»

أنسي الحاج

اخترع الله المطر، فردّ عليه البشر باختراع الموسيقى. وهذه قصّة عازف.

أنا أحد الذين لم يصدّقوا. مثل الجميع خرجت من العدم، على صورته، ولا يسعني أن أطلب أكثر. رغم ذلك وجدتني في منزلٍ صغير على ضفاف فيستولا، النهر المتسامح الذي سبَحت الحرب فيه. نظرت إليه أوّل مرّة كما يشيح الجنود أنظارهم بعضهم عن وجوه بعض، بعد انتهاء المعركة، فتستسلم وجوههم للجاذبيّة، يصوّبونها إلى الأرض، ويمشون بخطوات متراصّة إلى حتف يخالونه مجداً، ولا يكون ذلك سوى سرير رطب وأغطية من تراب، وطبعاً برزخ يقود إلى منتهى النهايات السالفة. لست جنديّاً ولن أصير كذلك في حياتي، ولكنّي كنت عائداً من معركة. استسلمت لفِتنة الحرّيّة ومشيت حتّى وصلت. لم أرَ إلّا بيتاً أسجن نفسي فيه. كان بيتاً بثقوب ناتئة في

صدره وكأنّها ذكرياتٌ باقية. كان بيتاً للنسيان، وسكنه، في الأساس، أجمل شبح في العالم.

لا أنسى اليوم الأوّل بعد الفرار العظيم. أوّل ما فعلته حين شذّبت لحيتي أنّي تأكّدت من وجهي، جرحته مرّتين لأتأكّد من أنّه وجهي أنا، حتّى وإن كان ذلك في مرآة. خرجت من العنبر ورأيت العصافير، كانت تقضم السماء بأصواتها، والسماء تفّاحة زرقاء. مشينا إلى طرقات لم تعد موجودة. حلّ بشوارع البلاد ما حلّ باسم القرية حيث كان المخيّم: أضيفت إليها لكنة الأعداء. فور خروجنا وزّع علينا السوفيات خبزاً وصوَّبوا خراطيم مياههم الرفيعة التي بدت أفاعيَ ضخمة إلى أجسادنا، وأطلقوا المياه نحونا ضاحكين. خفنا حتّى وهم ينظّفوننا من رذاذ الاعتقال، كأنّنا نرث المحتفلين ونضيف بفرحنا إثماً إلى النجاة، كان يجب أن نموت مثل الآخرين. كانت الشمس حقيقيّة، وكنت مميّزاً في النجاة، إذ حصلت بطريقة ملتوية على كمّيّة وافية من القهوة السيّئة، ذات التفل الوافر. كان جنديّاً كريماً، ذاك الذي منحني قهوته مومئاً برأسه ببطء، كأنّه يردّ لي ديناً قديماً، ولم يجد سوى القهوة. مشينا وكان هذا همّنا الوحيد: أن نمشي ضامنين بقاء القدمين مثبّتتين بآخر الساقين، وأن تنتهي الخطوات في أبعد نقطة.

وبعد ليلة عصيبة، بات بعضنا فيها في الشارع الذي تفوح منه روائح الاحتراب وماتوا سعداء في الثلج، انتشرنا في البلاد هرباً من احتمالات الماضي.

نمت في اليوم الأوّل قرب النهر، وكان هذا إنجازاً أوّل، استعادة فيستولا، مع قوافل الناجين الذين افترشوا الضفّتين في أكياس نوم زيتيّة، من عدّة الجيش الأحمر. وفي اليوم التالي مشيت. في 28 كانون الثاني 1945، كنت مجرّد شاب عمره 23 عاماً، يغادر

موته ويمشي. مثل الجميع مشيت ولكنّي تشبّثت بقهوتي، حضنتها بوصفها الدليل الوحيد على نجاتي وإن كانت نجاة ملتوية. صودف، وسأذكر أسباب الصدفة لاحقاً، أنّي أويت إلى منزل رُمّم في 1931، أي قبل عقدٍ ونصف تقريباً من نهاية الحرب. وبمقاييس الحروب، لا يُحسب هذا وقتاً كثيراً.

تأخذ الجدران في البيوت وقتاً طويلاً كي تذرف أعصابها، لكنّ الحروب تنسج خلايا متينة في أعصاب أهلها. إنّه منزل داخل الغابة، قرب زيلازوفا فولا[1]. قبل اندلاع كلّ شيء، كنت قد قرأت عن ذلك المنزل تحديداً، وفهمت أنّه بُني على صورة أنقاضه حين كانت متماسكة، ولكنهم سمّوا ذلك ترميماً. لقد تصدّع إلى درجة ألزمت أصحاب الشأن باعتماد المنهج النيتشوي: النسف والبناء من حجر الصفر. ولا فائدة من تعداد الأشجار حول المنزل إذ إنّه في غابة، عادت إليها رئات الطيور في أوّل أيّام 1945[2]. صحيح أنّه مكان لا يصلح إلّا لتصوير الأفلام الكلاسيكيّة، وسيحبّه هيتشكوك أكثر منّي، ولكن كانت فيه مكتبة بكتب مصفوفة بعناية قارئ أرستقراطيّ، مطبخ معطّل، حمّام أشبه بجنّة، وأخيراً سرير.

في الليلة الأولى أهديت دقّات قلبي للرياح الآتية؛ قيل إنّها عاتية تزحف إلينا من سماء موسكو، تعبر الأورال بسرعة قياسيّة. رقدت على سريري في البيت المهجور، وثبّتت القبّعة الصوفيّة على رأسي بإحكام، كأنّي أوصد رأسي، وأرفض نفاذ العالم إليه. تلحّفت بغطاء سميك رميته فوق جسدي برفقٍ، كي لا أفسد كتاباً استعرته من المكتبة: الجريمة والعقاب، لدوستويفسكي. دخل إلى الغرفة ضوء شحيح، وكانت بعض حيطان المنزل قد اغتيلت بعدما غدرها

[1] قرية بولنديّة تبعد 40 كيلومتراً عن وارسو.

[2] الأوّل من كانون الثاني/يناير هو اليوم الذي دخل فيه الجيش الأحمر إلى وارسو.

الجميع، فانهارت ودُفنت بقربي، أو العكس، لا أدري بالضبط. في تلك الليلة تمدّدت على السرير كما لو أنّه نعش، لا نعرف كلانا من منّا دُفن قرب الآخر. لم يكن المنزل في حالة سليمة، بل كان متصدّعاً على نحوٍ لا يترك مجالاً للشك في أنّه سينام هو الآخر. قرب الحيطان القويّة بدوت حائطاً مغدوراً. انتظرت قيامة الصباح، للذهاب إلى البلديّة، وتسجيل اسمي في السجلّات، وانتظار ظهور جاكوب. أعيتني المدينة، فقلت أغفو، ولكنّي ذهبت في ليل طويل.

لم يكن لديّ منزل. أكلت الحرب بيوتنا القديمة، فذهبت تلك الليلة بحافلات الجيش السوفياتيّ إلى غرب العاصمة. كانت الفوضى عارمة، فتسلّلت إلى المنزل الذي أحلم به، لأقابل الشخص الذي لم يعد موجوداً. وجدت البيانو في مكانه. كلّ البيوت كانت تعزف، كلّ البيوت تتألّم. رمقت البيانو المتغبّر بعين المنتصر. دُسَّ البيانو هناك قصداً كي لا أتحوّل إلى عجوز يلتصق بالرصيف. داعبته مداعبة رخيصة، ورحت ألعب، بينما الثلوج تهطل على أوروبا. كان ذلك بعد السادسة مساءً، حين تنام الأرصفة فجأة، ويرحل شبابها الذين يغسلون فقرهم بملابس برّاقة، ويدهنون شعورهم بالمسحوقات اللزجة. الشباب الذين رحلوا منذ برهة، قبل خمسة أعوام، إلى الأبديّة، وأخلوا المكان لقطعان المشرّدين. هؤلاء، الذين في مثل سنّي، ولم يرغب أحد منهم في التعرّف إلى شوبان، المسلول، النائم كملاك بأصابع طريّة كأنّها نباتات. فريديرك شوبان، صاحب المنزل.

7 شباط 2005

«إنّ كلّ ما يأتي من الروح أسمى ممّا هو موجود في الطبيعة.»
هيغل

جسد نور ممتلئ تقريباً، من كتفيها إلى أخمص قدميها، بالقوّة يثني الناظر إليه عن الروح التي تسكنه. لا بدّ من أنّ ابتداء الوصف من هنا سيعطي المتخيّل انطباعاً حازماً بذكوريّة الواصف. لكن، يستحيل البدء من مكان آخر. إنّها، أنا آسف فعلاً، مؤخّرة فاتنة، مستقلّة عن بقيّة الجسد، ويبدو اتّصالها بالخصر الأرعن اتّصالاً شكليّاً، حدث لضرورات فيزيولوجيّة. يبدو جسدها، المحبوس داخل الرداء الشرعي الضيق، مجموعاً على مراحل، وقد أضيفت إليه القطع تدريجاً، كما لو أنّه معرض، قيمته الأساسيّة في روحه، في وجوده بالأساس، والقطع المتناثرة فيه زينةُ الضرورة. كانت روحها تتحرّك في العلن. روحها في نهديها، اللذين لم يرنُ أحد إليهما. دائريّان وينمّان عن طراوة بالغة، رغم صلافة الأجزاء الأخرى المتناثرة حولهما. لقد أُعدَّ هذان النهدان للتحديق بهما، ولم يمسَسهما أحد قبلاً. في ما يتعلق بتلك اللآلئ الكبيرة، كان زوجها يكتفي بإطالة النظر بشراهة، كمن يمتلك لوحة

ثمينة، يخشى اكتشاف زيفها في لحظة. كان رجل أعمال تقليدياً، اقتنى لوحة أخرى. وبالنظر إلى الرائحة الساحرة التي تفوح من نور، وتصل أمتاراً ليست قليلة، يبدو أنّ جسدها تصالح مع صاحبته، بينما كادت أن تحوّله الشريعة إلى لوحة، تاركةً له بعض المنافذ للتمرّد: العطور القويّة والماكياج والكمّان المرفوعان بعناية حتّى المرفقين. وأنا أدقّق في بياض ساعديها البرّاق، بدأت تدبدب بيدها على طاولة الصالون، وهي تتناغم مع عزف صغيرتها على البيانو. حزنت كثيراً لأنّ صدري ليس طاولة لأصابعها. تخيّلتني صحناً عريضاً تحمله برفق إلى المطبخ وتفركه بقوّة. تخيّلتني شعرها؛ تمسّده بعد حمّام ساخن. لم أترك شيئاً إلّا تخيّلته، ما عكَس على وجهي معالم رضىً أوحت لها أنّ ليال تقوم بعملٍ رائع. مجّدت شوبان في قلبي وشعرت بقلّة الأمانة، من دون أن أندم طبعاً. نور تلهث في داخلها كحصان مقيّد بحبال الشريعة، وأنا بالكاد أتحرّك، إذ كان عزف الصغيرة سيّئاً. لو كنت في مزاجي المعتاد لصفعتها بلا تردّد.

في نهاية الحفلة الصامتة، سألتني نور إن كنت سأتأخّر الخميس كما حدث في ذلك اليوم. تلعثمت قليلاً، وأنا معتادٌ هذا، مؤكّداً أنّ الأمر كان خارجاً عن إرادتي. كنت أكذب طبعاً، وأنا معتاد هذا أيضاً. فقد بدا لي الأمر مريباً في البداية حتّى إنّني فكّرت بالاعتذار وعدم الذهاب، إذ كنت أعرف أنّها عائلة متديّنة، تتعامل مع الموسيقى بوصفها ترفاً، وأنّي سأكون المهرّج الجديد. قبلت في النهاية ولكن ليس بسبب الإحراج، ذلك لم يكن عائقاً، أعني الإحراج، فأنا معتاد الاعتذار كمرحلة أخيرة حاسمة، تسبقها محاولات عديدة للاختفاء. لكنّي كنت بحاجة إلى المال، فصاحب المنزل لم يعد يطاق، ما اضطرّني إلى قبول العرض. لا أدري إن كانت نور تعرف هذا كلّه. ارتبكت، وحاولت تفادي الإجابة المعتادة: لا أعرف. انتظرَت بضع

ثوانٍ ثمّ قذفت السؤال التافه بثقة في وجهي. أشاحت رأسها قليلاً إلى اليسار، فشعرت بالامتعاض. رسميّاً، أصبحت مهرّج العائلة.

– هل ستتأخّر الخميس أيضاً؟

– لا، على الأرجح لا.

– على الأرجح؟

– لا أحد يعرف. قد يحدث شيء ما، قد تقوم القيامة. ألستم مؤمنين في هذا المنزل؟

– بلى، نحن كذلك، لكن من فضلك، لا تتأخّر. يصادف الخميس المقبل عيد الفالنتاين، وكما تعلم، يجب أن أهتمّ ببعض الأمور. وقتي ضيّق قليلاً. أتمنّى أن تكون هنا قبل الثانية عشرة.

– أتحتفلون بعيد الحب؟

– نعم، رغم أنّنا مؤمنون!

أدارت ليال وجها نحو والدتها التي عضّت شفتها بينما راحت تهزّ ساقها، كناظرة غاضبة في مدرسة للراهبات. ساد صمتٌ لثانيتين، قبل أن نضحك جميعاً، وأغادر مبتهجاً كما لو أنّي كنت في سيرك.

1 شباط 1945

«هذه النوافذ المضاءة لتأكيد الظلام، من يقفلها؟»

عيسى مخلوف

في اليوم الثالث شعرت بجوعٍ ينخر رأسي. نادراً ما يشعر المرء بجوعٍ في رأسه، لكنّ المجاعة امتدّت إلى ما بعد الحرب، فلمَ لا تكون أجسادنا أوهن من جسد القارّة؟ في الأساس، لم أحارب، أخذوني من المنزل. وأوروبا مِثلي، لم تحترب، أخذوها إلى المعتقل. خرجت من منزل شوبان، الذي أتاحت ليَ الحرب رؤيته، كأنّي عائد إلى المعتقل. نمت في سرير شوبان، واعتبرت هذا انتصاراً، قبل أن تبدأ الهزائم. في البداية، قالوا في البلديّة إنّهم سيمنحوننا مساكن مؤقتة. أذكر ذلك اليوم جيّداً، والأحاديث في ذلك الوقت، عن «وارسو الجديدة» التي ستُشيَّد على أنقاض تلك القديمة. أبدع الشيوعيّون حينها في اقتراحات لإعمار مدينة اشتراكيّة، غير أنّ طلاب جامعة وارسو، عادوا لاحقاً، واقترحوا إعادة وارسو كما كانت. فهمت أنّ الجميع سيشارك في إعادة الإعمار، ويزعجني دائماً الانتماء إلى الجميع. للجماعة حسنة واحدة في التاريخ على الأرجح، وهي استعادة وارسو. تعلّم التسكّع

خلال سنوات إعادة الإعمار، وانتظار الأقرباء ليسا من الحسنات، بل أشياء توضع في مصاف الوقت الميت. حصلت بسرعة على وظيفة في الحديقة لم يمنحوني إيّاها إلّا بعد شهر ونصف بلا نوم.

تلك كانت أيّام التسكّع. قبل وصول جاكوب تزامناً مع وصول ثلاثة ألف بولنديّ مهاجر، تسكّعت حتّى ربّيت صخراً في عظامي. ذات يوم ضربت متسوّلاً عجوزاً كي لا أموت من الجوع. كان قد قضى أياماً يتسكّع في زاكوبوني، شهد عصر الملاحم الأوروبيّة والفرسان الذين لن يبقى منهم إلّا بعض التماثيل الناجية. عاش زمناً كافياً ونجا من هلاكه بأكثر من أعجوبة. إنّه أعجوبة بحدّ ذاته، وقد بدا لي أسطوريّاً. رجل في هذه السنّ لا تزيحه الثلوج سنتيمتراً واحداً عن ناصيته العفنة. أسطوريّ بلا شك، ولكنّه لم يحظ بتمثالٍ مع وجه متجهّم. رجلٌ مثل هذا هو تمثال بحدّ ذاته. كسرة الخبز المهترئة لي، كسرة الخبز لا تكفينا معاً، يجب أن يأخذها واحدٌ منا فقط، وهو يجب أن يكون الشخص القادر على مواجهة الذئاب الآخرين. يجب أن لا يكون تمثالاً. التمثال لا يمكنه أن يكون حيّاً، إنّه تعويض بائس عن الموت والموت ليس سمة شخصيّة. لا يمكن أن يكون لكلّ ميت تمثال، ولذلك فإنّ وجود بعض التماثيل ليس عادلاً. التمثال في المتحف عملٌ فنّيٌّ يذيب القلب، لكنّه جريمة إذا كان في منتصف الطريق. رأيت العجوز على رصيفه، كالتمثال، يحاول الفرار بالحياة وحيداً، مخبّئاً، إلى جانب الخبز، بقايا تفّاحة تركتها له سيّدة بقبّعة مزيّنة بالريش وملابس دافئة لا تحجب تكوّر عنقها المشتهى. لمحتها تنسحب من معاركنا الصغيرة، بعدما قذفت تفّاحتها كقنبلة بيننا وأشعلت الحرب...

لم يمت من الجوع، بالكاد سلبته قوته النتن، وقد بدا معتاداً ذلك. رمقني بنظرة لم تؤثّر بي كثيراً، رغم أنّها نظرة تمرّن عليها حتّى

أتقنها. وددت أن أحيّيه على اعتراضه المسرحيّ، لكنّي كنت على وشك أن أموت، إذ دخلت مباشرةً في عراك مع ثلاثة متسكّعين آخرين، في آخر الشارع، نجوا من الحرب بدورهم، وعادوا لتوّهم إلى ما كانوا عليه قبل الحرب. لصوص وحملة هراوات خشبيّة يكنسون الشوارع، بأيدٍ صلبة، وأسنان صفراء ناتئة أمام حقد عظيم يرعى كعشب حادّ في وجوه المحرومين. تركوا لي الخبز، وأخذوا ساعة يدي. ما بقي من أبي. لقد أخذوا أبي إلى الأبديّة، وبذلك حسموا الأمر نهائيّاً...

نظرت إلى العجوز بشحوب. ضايقه عدم تمرّسي في التعامل مع الحالات المشابهة، فأعدت إليه خبزه واحتفظت بالتفّاحة. قضمتها وأنا أبكي بهدوء كأنّي أؤدّي دوراً تافهاً على خشبة مسرح، ولا متفرّجين.

أتى شقيقي أوّل الربيع مفعماً بالآمال الكبيرة، لكنّه فوجئ بالتفسّخ في تاريخ المسكن المؤقّت فزرع فيه أثاثاً أميركيّاً غريباً شحنه معه، متباهياً بالثراء وبما كان يسمّيه: الحداثة. كان هذا أوّل ما فعله جاكوب السعيد بالعودة. ثبّت في قلب المنزل المؤقّت كراسي تلحس الأرض عبر قواعد حديديّة طويلة، تنتهي بدوائر حمراء بلا زخرفة، ويحدّق بعضها ببعض كما لو أنّها جماعة متحابّة. لا أنكر أنّها مريحة، تبتسم دائماً غير آبهة بثقل الأجساد، وتتحمّل البقاء في مكانها بطيبة خاطر. لم يهدر صانعوها وقتهم في البهرجة. ركّزوا على أهمّيّة الجلوس، وعلى إنتاج أكبر عدد من الكراسي، بينما كنّا غارقين في قتال بلا أسباب منطقيّة. خلال الحصار، جلب لنا جماعة

«البوند»[1] كرسيّين الجلوس عليهما أصعب من النظر إليهما، وما لبثوا أن أخذوهما إلى مكتب سرّيّ. أحنّ إلى الكرسيّ الخشبيّ، أكثر من جميع الكتب التي قرأتها وأنا جالس عليه، من ماركس إلى هيغل، وصولاً إلى الكتاب المقدّس الذي يذكرّني بأمّي لا أكثر. الكرسيّ أهمّ من جميع الكتب، باستثناء كتب كافكا طبعاً. أما في منزلنا الذي صار نسخة هزيلة لمنزلٍ في نيويورك، فكان لدينا تسعة كراسٍ، ستصبح لي أنا وحدي، إذ سرعان ما سيعود جاكوب إلى بروكلين مفعماً بالمشاعر المترفّعة عن أوروبا العتيقة. لم يقترح عليّ الهجرة حتّى، فكرهته، وكرّهني أميركا.

بقيت وحيداً في المسكن. لم يكن مسكناً بل كان معتقلاً شخصيّاً بمطبخ وحمّام ببلاط أخضر. ثلاث غرف تتفاوت في الحجم تفاوتاً هائلاً، وصالون أكثر هولاً، ميزته الوحيدة أنّي لن أصارع أحداً فيه لسرقة التفاح. كان الصالون أشبه بعلبة تطلّ على الغرف الأخرى عبر حافة مرتفعة نوعاً ما، أكثر منه صالوناً تقليديّاً بطاولات ومنافض وتحف تركها بولنديّون مهاجرون لملء الفراغات. وكانت هناك حافة من ثلاثين سنتيمتراً تقريباً. لم أفهم سبب وجود حافة في المنزل، حتّى وإن كان قديماً، ولكنّي قبلتها بسرور. إنّها حافة وكلّ قفزة ناجحة عنها تعني نجاة جديدة. احتجت للتمرّن على النجاة بعد خروجي، وربّما لهذا السبب وضعوا الحافة. كانت حيث أقطن ولم تكن في المنازل الأخرى، يعني أنّي الوحيد الذي أحتاج إلى تمرين. الآخرون لا يحتاجون إلى شيء، لأنّهم ماتوا. كنت أضطرّ إلى عبورها أكثر من عشر مرّات في النهار. وقعت هناك أكثر من مرّة. بكيت أكثر من

[1] «بوند» كلمة يديشيّة معناها «الاتحاد»، وهي الكلمة الأولى في عبارة «الاتحاد العام للعمّال اليهود في روسيا وبولندا وليتوانيا»، أحد أهمّ التنظيمات الاشتراكيّة اليهوديّة في شرق أوروبا مطلع القرن التاسع عشر.

مرّة إذ كلّما وقعت تذكّرت الذين وقعوا ولم يتمكّنوا من النهوض. أحياناً بكيت فرحاً لأنّي أنهض. وإن كان للبكاء قيمة في هذا العالم فإنّه كقيمة الحافة في المنزل، وطبعاً، كقيمة الانتصار في الحرب. والحرب بكاء متواصل، لأنّ الزمن فيها مصنوع من حواف، حافة فوق حافة. وأحياناً، يكون السقوط مدوّياً. الحافة تستدعي الوقوع، والوقوع يستدعي البكاء، والبكاء يستدعي البكاء. الهزيمة هي الحلّ، هي الانتصار الحقيقي الوحيد. على الأقلّ تضع حداً للعيش على حافة. في الأساس مات أبي لأنّه سقط عن حافة وهوى إلى حفرة غاز. أعرف قيمة الحافة أكثر من أيّ أحد.

عندما عاد جاكوب من نيويورك، اصطحب معه – إلى الأثاث والملابس التي لم أفهم لماذا كانت واسعة إلى تلك الدرجة – زوجة أميركيّة-إيطاليّة. كان موظّفو البلديّة قد سجّلوا اسمي، وأعطوه عنواني عندما جاء وسأل، فأتى سائحاً بعد أسبوعين. كانت فرانشيسكا لا تشبه والدها القسّ، أو ما أعرفه عن القساوسة. تضحك طوال الوقت وتحبّ الكحول ولحم العجل المشويّ، مهووسة بالرقص وتتحدّث بصوت مرتفع طوال الوقت. اعتدتها سريعاً، كنت مستعدّاً لأن أعتاد أيّ شيء، وهي سهّلت عليّ المهمّة، إذ بدت قطعة من الأثاث المشحون بدورها. وهذا ليس سلبيّاً، فقد أتى جاكوب بأشياء على صورة تلك البلاد اللامعة، حيث يتراشق الناس بالثلج، ويضعون القبّعات المدوّرة بدلاً من خوذ الموت التي ألفناها. قبّعات مشابهة لقبّعة تشارلي تشابلن، فيصير الواحد منهم تشارلي تشابلن، محتفظاً بحقّه في المرح، والاحتفال متى شاء. لفتتني معاطفه التي أحضرها أيضاً، كانت ألوانها أكثر جذلاً. جلب معه قميصاً فاقعاً يؤاتي كنبات الصالون الحمراء، وكان يلبسه عندما يقابل الأقارب، من يصحّ القول إنّهم أقارب، مستخدماً إيّاه كوثيقة تعريف عن هويّته الجديدة.

سئمنا الأحمر ولا أحد غيره يرغب في هذا اللون، إلّا الكنبات الوثيرة – مهلاً، لقد كانت وثيرة لشدّة الجلوس عليها، لا لنوعيّتها الجيّدة – فشقيقي غشّاش، هرب باكراً وعاد متأخّراً. أمضينا وقتاً ممتعاً، حتّى إنّ أخي الأميركيّ اكتشف الصيف في وارسو، قبل أن يغادر على متن باخرة عملاقة في خريف 1945، إلى الأبد.

إنّه مثل الكنبات السمينة، وبدا لي لفترة طويلة كنبة مقلوبة تعرف جيداً كيف تمتصّ ثقل الصدمات. أصلاً الكنبات التي أحضرها لم تقنعني. رغم أنّها كانت برّاقة، لم أصدّق أنّها جديدة. كنت أشعر بالبرد إذا جلست عليها، حتّى خلال الصيف. كنبات مثلجة، ما إن تتحسّسها حتّى تشعر بالرغبة في الاسترخاء، والتحوّل إلى إسفنج. يمكن أن نقول إنّها كنبة حداثويّة، تسبق عصرنا، سورياليّة في ألوانها المرقّطة، وتوفّر رخاءً لا مثيل له. لقد تركنا الأميركيّون نموت وانشغلوا بالكنبات. أمّا البلاط، فكان برتقاليّاً ومرقّطاً بحبوب سوداء بدت لي أشبه بغبار متحجّر. مربّعات متوسّطة تظهر عليها آثار الأقدام بوضوح تام. كأنّ أصحابها حفّوا الأرض عمداً. عابرون قساة بلا شكّ خافوا من ارتفاع السقف فانتقموا من الأرض. الحرب مرّت على الكنبات الغبيّة أيضاً ونامت فيها حتّى عشّشت في قلب أوروبا. كان لا بدّ من أميركا لمحو كلّ شيء. أميركا ممحاة الكوكب.

مكتبة أحمد

***

لا يمكن أن يكون الزمن زمناً خالصاً بلا تدخّل من أحد، لقد تطفّل البشر بلا شك. وعلى سيرة الزمن، كان المطبخ يطلّ على زمن سحيق. إنّها ميزة من ميزات الطوابق الأرضيّة: الزمن. في الطوابق المرتفعة يتحلّل الزمن. تذيبه السماء التي لم تتغيّر منذ الأزل. غرفتي كانت واسعة بالمقارنة مع الغرفتين الثانية والثالثة. وأحسبها الغرفة الأولى

لأنّها كانت ملتصقة بباب المنزل. هكذا، شعرت بأنّي أهمّ ساكن يوم أقام جاكوب وزوجته معي. لكن، بعد أن رحلا، فقدت غرفتي ميزتها، وأصبح المنزل كلّه غرفتي. كلّ من يدخل المنزل كان عليه أن يمرّ بغرفتي، على عكس البيوت التي كانت تُفتتَح بأروقة تحرس حميميّتها. أصلاً، لم أكن أحتاج إلى رواق. فبعد الحرب، تغيّرت أوروبا. أصبحت زيارات الناس بعضهم لبعض ترفاً، وأصبح الاستغناء عن الرواق ممكناً.

لا أذكر الغرفتين الباقيتين، ولكنّي قطعاً لم أخترعهما. في واحدة منهما كانت هناك مكتبة كما قلت سابقاً، عليها آثار أصابع وأعقاب سجائر وكؤوس فرغت ولم تجد من يسكب فيها المزيد من الوقت. تسلّقت المكتبة ذات يوم وكسرت ساقي وبكيت من الألم. في الغرفة الثانية كان هناك راديو ضخم. تذكرون الراديوهات الضخمة طبعاً، تلك التي تشبه العظام الآليّة البنّيّة الفاتحة. أخافني الراديو الجديد. أخافني المنزل بأسره. كان منزل أشباح.

قضيت في هذا المنزل ثلاث سنوات. اعتدت صحبة الجدران الحيّة والميتة معاً. وكان سجناً أليفاً بشبّاكين طويلين أحدهما يتيح للبصر شقّاً وافراً من الغابة. الأهم من ذلك كلّه، أنّه كان بلا حرّاس. كنت أنا الحارس الوحيد، حارس ذاكرتي. رغم ذلك رضيت أن أتعامل معه كأنّه سجن وأن لا أخون هذه العلاقة. شيءٌ ما في داخلي دفعني إلى التعامل مع أوروبا كلّها كسجن عملاق، حبستها الحرب وحبستنا معها، كما لو أنّنا في حلبة نتصارع فيها مع ذاكراتنا. وكي أغادر ذاكرتي، كان يجب أن أغادر أوروبا، كحال 80 ألف يهوديّ أخطأهم الموت. شقيقي الأميركيّ عاد بعدما اطمأنّ إلى نسل العائلة من الانقراض. لماذا يكترث لنسل ذاكرتي الطويل الذي ينخر عظامي أثناء العمل وأثناء النوم، وطبعاً، عندما يعزف شوبان؟ لا ألومه. يحبّ

لويس بريما وفرانك سيناترا. أنا بولنديّ، وكما تعرفون، شوبان أسطورة بولندا وتالياً أسطورتي. سونيتاته تشبه المدينة القديمة، وشخصيّاً، حسنة شوبان العظيمة، أنّ موسيقاه تنسيني خجل النجاة. أصابع شوبان المسلولة هي التأبيد المنطقيّ للألم البولنديّ. أنا البولنديّ الأخير، وهنا وارسو، المدينة النائمة على صليب العالم.

14 شباط 2005

«بمَ تَرسم البلاد والجموع أرقام فوق أرقام فوق أرقام.»

بول شاوول

مشكلتي دائماً أنّي لا أعرف ماذا أفعل. لا أعرف ماذا أريد من ساعة الحائط، أو مغزى وجودها في المنزل. لم أنظر إليها في حياتي لكي أعرف الوقت، وفي ذات الوقت، كان التفكير بنزعها يصيبني بحزن عميق. لا أستطيع أن أسلخها هكذا فجأة. احتاج الأمر إلى ثلاث سنوات كي أنقلها إلى المطبخ، لكي أحافظ على صوتها في أذني البليدة، وأعلّق في مكانها صورة ملوّنة للاعبين من المنتخب الإيطاليّ في كرة القدم، احتفالاً باعتزال باولو مالديني. حتّى في هذه التسوية، كانت الحيرة كبيرة، والخيار عظيماً، بين مالديني وميشال فوكو. اعتبرت الأخير متسامحاً، ويتطلّب تعريفه إلى الزائرين القلائل جهداً لن أقوى عليه غالباً. مالديني أجمل منه وسيكون أكثر ودّاً مع الضيوف.

أحياناً أستغرق وقتاً طويلاً كي أقرّر الذهاب إلى مقهى عاديّ في شارع أحبّه عادةً، وأغيّر رأيي في منتصف الطريق، فأعود محتفلاً بنجاةٍ من حدث لا أعرفه. أحياناً أقول كلاماً ساحراً لا أعرف كيف خرج

منّي، وفي نهاية الحديث تقريباً، أجهد للتنصّل منه. لطالما شعرت بالإثارة تجاه صديقتي حتّى امتلأت بها، ولكنّي كنت دائماً أشعر بخمول رهيب في الطريق إلى السرير. أرغب في العودة إلى مسقط رأسي، لكي أعمل عازفاً، وأقود درّاجة هوائيّة، كما لو أنّي روبرتو بنيني في فيلمه الساحر «الحياة جميلة». لكنّي لم أكن قادراً على أن أترك أمّي. وفي نهاية كلّ حيرة، كنت أكتشف أنّي لا أغيّر شيئاً. التغيير الوحيد الحقيقيّ هو الموت، أي أن أتموضع في إطار، مشابه لذلك الذي يعلو باولو مالديني. أبي، بالأبيض والأسود، شاحباً، يستكين تحته، في كعب الإطار تماماً، شعار الحزب الشيوعيّ اللبنانيّ. كان أبي مقاتلاً في حرب بيروت، بينما جدّي كان عازفاً في حرب وارسو.

***

كان قميصها أبيض ومزركشاً برسوم لزهور ملوّنة. قماش عاديّ، باهت نوعاً ما، لا إضافات تميّزه إلّا ياقته الكحليّة العريضة. صمّموها على شكل فراشة أفردت جناحها فوق الصدر، ورُبطت على نحو بسيط. باهت كالشيء الذي نتذكّره دون أن تكون لنا رغبة في ذلك ولكن يحدث أن نتذكّره. نحن نتذكّر ما لا نرغب في تذكّره، والعكس تقريباً مستحيل، إذ تعمل الذاكرة ضدّ الرغبة. رأيت، ولا حاجة للذاكرة هنا، قميصاً أنيقاً رغم قلّة توهّجه، يظهر فتحة النهدين التي بدت بئراً. سترغب في النظر إلى آخر البئر. لن يشيح أحد نظره عن البئر. مجرّد رؤيتها يحرّك حاسّة الانتصار، الانتصار على القعر. قد تكتفي بالنظر وقد تلقي دلواً فيها لتسمع القرقعة. قد تمدّ عينك ولا تصل. ولكن إيّاك والغرق. يصل القميص إلى حافة التنّورة بالضبط. ليس ضيّقاً لكي يحدّد نطاق الخصر، وليس واسعاً بما يكفي للقول إنّه فاض عن الجسد. القميص لعبة الجسد، وما على الفراشات سوى التحليق.

وضعت يدها قرب الفراشة، بعدما أعادت رأسها قليلاً إلى الحائط، ما أحدث طرطقة بصدى عابر، نظراً لخلوّ البهو خلوّاً تامّاً. وبتلك الحركة التي تنمّ عن حنكة موصوفة، صار صدرها قوساً أليفاً. انتقلت إلى الهجوم بعودتها خطوة إلى الوراء: لقد شهرت قوساً. إنّه ذكاء الجسد القادر على تجاوز الارتباك والتقدّم خطوة إلى الوراء. اليد الأولى بأصابع طريّة قرب القوس، تنقل الخجل منها إليه، مدغدغة البئر، والثانية تعيد خصل الشعر إلى خلف الحجاب. تفوح رائحة. مزيج من عرق يقاومه الجلد، يمكن وصفه بالريفيّ، وبالكاد يلمسه الأنف، مضافاً إليه ضوء النافذة الذي يمنح المشهد طابعاً سينمائيّاً، كلّما صفق هواء شباط. لا نعرف إن كان بارداً فعلاً أو هو مجرّد تمرين على الرعشة.

كلّ شيء كان معدّاً للاحتفال: لوليتا تبحث عن نابوكوفها.

ليال في صف البكالوريا، ما يعني أنّ عمرها 16 عاماً تقريباً. وهي محجّبة أيضاً. رقيقة كوالدتها، وتكثر من التبرّج، رغم نصائحي الدائمة لها بالتركيز على ما يُفترض أنّه موهبتها. بلغ بي حبّ البيانو مبلغاً يائساً، فصرت أعتقد أنّه لا أحد موهوباً غيري، ولذلك بإمكاني توزيع النعت على الراغبين. ليال عديمة الموهبة في العزف وفي الحبّ أيضاً. أحبّت شاباً تافهاً، يعمل سائقاً في جمعيّة دينيّة، ونامت معه على الدرج، غير آبهة بقسوة الثلاثين الظاهرة في عينيه. تلصّصتُ على كلّ شيء، متحسّساً فمي كلّما سمعت صوتاً إضافيّاً، لكي لا أطلق شهيقاً كبوق مذعور. كانت الواحدة ظهراً، ويبدو أنّي أتيت متأخّراً، ولم ينتظرني المدعوّون. لقد بدأت الحفلة التي شاهدت تفاصيلها بلا نقصان على زجاج شبّاك المنوَر. طوبى للانعكاس، فقد حوّل الدرج إلى شاشة تجاوزت السينما إلى الواقع. حلّقت الفراشات والقوس لم يعد أليفاً. طال الأمر، في الطابق الأعلى، إلى درجة لا يمكن احتمالها، وخطر

لي أن أصعد بقيّة الدرج بتأنٍّ، وأوقف هذه المهزلة بشهر إصبعي الأوسط في وجه التافهَين، والعبور إلى الصالون بخطوات واثقة، حيث ينتظرني البيانو بلا تذمّر. سبّبت لي الحادثة إزعاجاً طفيفاً، لسبب بسيط، ليس أخلاقياً طبعاً. سجّلت قرفي من الكلمات الخرقاء التي قالها الشاب لليال، ولكن، ليس من حقّي أن أعرف بحدوث الأمر، وتالياً، لن يكون من حقّي إسداء النصائح الرتيبة. كانت ليال لوليتا على درجٍ معتم، غير أنّ ذلك المخبول لم يكن نابوكوف على الإطلاق. تضايقت من أنّي تأثّرت وحلّت بي رغبة في الاعتراض على المشاركة في هذا. أن تكون موجوداً يعني أنّك شاركت، هذه هي الأخلاق، وهي ثقيلة للمناسبة. فكّرت أن أصفعه عندما ينتهي، أو أفتعل شجاراً معه، غير أنّي سرعان ما دجّنت هذه التخيّلات في مكان آمن برأسي. لماذا أصفع رجلاً لا أعرفه؟ لماذا كرهته إلى هذا الحد؟ وأنا شخص أسير بجوار ظلّي، أنا اليسوعيّ الوحيد ربما، لكن إذا ضُربت على الأيمن، لن أدير الأيسر، وذلك عن كسلٍ لا عن ترفّع. ينبغي توكيد رغبة عارمة أصابتني في فضح هذا الشخص تحديداً، أو توبيخه بشدّة على الأخطاء الفظيعة التي ارتكبها أثناء ترداده بعض الكلمات باللغة الفرنسيّة على مسمع ليال، التي تعرف مالارميه وبودلير، وأخيراً، لسوء الحظ، صارت تعرف لارا فابيان. كنت قد أفردت من وقتي في الحصّة الأولى مساحةً لأوضح لها ضرورة «الدفاع عن المجتمع»، برأي فوكو، فكيف ينطلي عليها هذا الردح الأهبل بفرنسيّة غبيّة على لسان صاحبها التافه؟

كلّ ما كان يشغل بالي أنّي حُبست في منوَر الطابق السادس، وأنا أعاني، في الأساس، من ضيق مزمن في التنفّس، يلازمني منذ طفولتي ويدفعني إلى اعتقادٍ لن أتخلّص منه، هو أنّي سأموت أثناء نومي كدبّ ضخم. استمرار الأمر على هذا النحو سيضطرّني إلى

التصرّف بفظاظة، وإلّا الغرق في لهاث أخشاه أكثر ممّا أخشى الزلازل. لهاث أشبه بطبلٍ يُقرع فوق قلبي.

شرد ذهني في الجدار المواجه، حين مددت رأسي من نافذة البهو لكي أتنشّق بعض الهواء. فككت زرّاً ثانياً من القميص المفضّل لديّ، مواصلاً شرودي في ماركته دولتشي أند غابانا. ترداد الاسم يبعث على متعة لفظيّة مجّانيّة، إنّه مضادّ للّهاث. قلت أتنفّس بلا صخب. لن أقضي يومي في هذه الزاوية مراقباً مقابض النوافذ المتراصّة بعضها فوق بعض كدليلٍ بلا مغزى على أنّ الطوابق توائم، مسترقاً السمع إلى الفراغ السابح في عتمة بيروت، يوم عيد الحبّ. حدث ذلك وأنا أنتظر انتهاء مهزلة الدرج. ربع ساعة، واقفاً في مواجهة الحائط، كما لو أنّي أعاقَب على القدوم متأخّراً. وقبل أن أطلق تنهيدة كان من شأنها أن تفضح مخبئي، استقرّت يدٌ على خصري، وضغطت بقسوة كأنّها تنغرز في جسدي. ابتلعتني. حين نظرت كان فم نور ممتلئاً بالدفء يوغل في عنقي، وكذلك أصابعها القويّة التي مصصتها إصبعاً تلو الآخر. لم أتوقّف إلّا عندما دوّى انفجار ضخم. ولا أمزح أبداً، ما زالت أصداؤه في أذنيّ الطويلتين.

***

كما توقّعته تماماً: لحية طويلة ومشذّبة على نحو يجعلها أقرب إلى قطعة من ملعب غولف عشبه أسود، قميص مقلّم بلونين باهتين وينسدل بقلّة ذوق فوق البنطلون، فيما برز خاتم مرصّع بقطعة فسيفسائيّة بنّيّة، تبعث على الريبة نوعاً ما، في الإصبع ما قبل الأخير. حيّانا بالقول: السلام عليكم. الشيء الوحيد الذي فاجأني هو قبّعته الصوفيّة الزرقاء، التي نقش عليها بالأزرق Sorry Mama، وهي كناية عن أغنية سريعة لمغنّي راب تافه. يجب أن يكون واضحاً

أنّه لم يضبطنا، أنا ونور، في وضع خليع، لأنّه من النوع الناهي عن المنكر، ولم يكن ليسمح لنفسه بأن يكون شاهداً على فعلٍ خليع، هنا تحديداً، على الدرج. بدت عليه معالم التقوى، والخوف من الغيب، لكنّه خوف مزاجيّ على ما يبدو، إذ إنّه بدا مرتاحاً قبل قليل وهو يرتمي على ليال. إنّه على هيئة مؤمن نموذجيّ، تبدو عليه ملامح الإيمان بلا نقصان. ولكن غالب الظنّ أنّه لم يعتبر تشابك يدينا حدثاً، فهو لا يعرف أنّها والدة الفتاة التي كاد أن يلجها على باب الطابق السابع، ولا يعرف أنّي مسيحيّ من أصول لن تروقه أبداً، متنصرن طوعاً، وساكت عن فعلته الدنيئة طوعاً أيضاً. لم يعرف أنّي أعرف، ولكنّي شعرت بأنّه عندما دقّق في نور عرف أنّها والدة ليال. لبرهة، قلت في نفسي، إنّها فرصتي. يجب أن أكون عنيفاً، لمرّة واحدة، أن أضع هشاشتي بلطف على حافة المنوَر، وأجرّب الانتماء إلى المجتمع. وأنا غارق في ابتسامة عريضة، وأفكار لا جرأة لي على تنفيذ ربعها، كانت نور قد أفلتت يدي بخفّة، فيما انتصبت ليال خلف باب المنزل بسعادة لا مبالغة في القول إنّها مفرطة إلى درجة مزعجة. لقد نجت بالصدفة، أنقذها المهندس الذي صمّم الدرج.

بادرت نور، كما سنعرف لاحقاً أنّها تفعل دوماً، كي لا تسمح لأحدٍ بتجاوز وجودها:

– ليال، هل سمعت هذا الصوت؟ هل قالوا شيئاً في الأخبار؟ يبدو أنّه قصف، ولا أظنّ أنّه في الناعمة. لقد بدا قريباً جداً.

– لا أعرف، سمعت الصوت، لكنّي كنت في الحمّام، وظننت أنّ أحداً ما أغلق الباب بقوّة.

– لا، يبدو أنّه انفجار بالفعل. اليهود لن يتركونا في حالنا!

لا أخفي عليكم هنا، امتعضت، وبما أنّنا نحن الثلاثة كنّا خارجين لتوّنا من لحظات حميمة لا أحد بيننا يرغب في إفسادها،

أجّلت الدرس الذي اعتدت تكراره، لجميع اللبنانيّين الذين عرفتهم، وأنا منهم بطبيعة الحال، عن ضرورة التمييز بين اليهود والإسرائيليّين. سرعان ما اكتشفنا أنّه انفجار وأنّه لا علاقة للإسرائيليّين به، وللأسف، أجدني مضطرّاً هنا للاعتراف بأنّني ارتحت قليلاً. لقد كان حدثاً بشعاً، وقد تأثّرت فعلاً لمشاهدة الأشخاص الذين قضوا احتراقاً. ولكن ضعوا أنفسكم في مكاني، لطالما شعرت بإحراج من أصولي، فضلاً عن أنّني الوحيد، في ذلك اليوم، الذي كان يعرف أنّنا ثلاثتنا تحت تأثير «يوم الحب». تقريباً، تبخّر درس البيانو، وانشغلنا جميعاً بمتابعة أخبار الانفجار الذي هزّ وسط بيروت. لم يكن العزف أمراً لائقاً أبداً، خاصةً وأنّ العائلة تقيم في مكان قريب من الحادثة، وأنّ والد ليال على معرفة وافية بأحد ضحايا الانفجار. لم أقابل هذا الشخص في حياتي ورغم ذلك كرهته كرهاً شديداً، لمجرّد رؤية صورته في صدر المنزل، بصحبة أحد الأمراء العرب، حاملاً بندقيّة مزهوّاً بها كما لو أنّها تعبير عن انتصارٍ ما. في تلك الصورة كان والد ليال يقف خلف جملٍ اصطاده بالخطأ. هكذا أخبرتني نور لاحقاً، إذ إن الصورة كانت ممزّقة، ورغم ذلك علّقوها في مكانٍ يستولي على البصر، أكثر ممّا يفعل ذاك الذي عُلّقت فيه لوحة «الأحد»، لإدوارد هوبر.

بعد ساعتين من نشرات الأخبار التافهة والملاحق التي نقلت صوراً حيّة من الشارع الهائج، اتّصلت نور بزوجها، وراحت تواسيه، مغدقة عليه بكلمات كفيلة بإثارة دبّ قطبيّ، قبل أن تختم المخابرة بالقول: «أنتظرك حبيبي».

وأجزم هنا بأنّي لست الوحيد الذي أعرف أنّها كانت تكذب برقّةٍ تفتّت جبلاً.

5 آذار 1945 – 3 نيسان 1951

«ما الذي تكتب الشمسُ، ماذا تقول لأبنائها؟»

أدونيس

لست نادماً على النجاة رغم أنّها لم تكن قراراً ذاتيّاً. لقد كانت رغبة الله، الذي أحبّه ولا يحبّني. ولأنّي أفهم معنى السماء، مثل الذين بقوا، شاركت في إعادة إعمار وارسو، وكان عملي في حديقة واجنكي تحديداً. الآن يستوقفني معنى اسمها: الحمّامات. لم أنتبه وقتها، أردت أن أعمل وحسب. أخبرتني سيّدة مسنّة أنّهم سمّوها كذلك نسبة إلى نافورة شهيرة كانت في منتصفها، وكان الناس يستحمّون تحتها منذ القرن السابع عشر. في أيّ حال، الاسم بحدّ ذاته ليس مهمّاً، ما يهمّ هو السيّدة التي شرحت لي المعنى. كانت تسلّم عليّ كلّ صباح، وتناولني فطيرة ابنها المفضّلة. وكنت آخذ الفطيرة المرّة، حتّى لا أكسر بخاطر الأمّ المسكينة التي تتحمّل صقيع المدينة لتأتيني بها. كانت تمرّ بشارعين أو أكثر، غارقين في ورش عظيمة، بحيث يصبح الوصول إلى الحديقة فعلاً شاقّاً لا يستحقّه هامشيّ مثلي. وكانت لديها جملة بمثابة اللازمة الصباحيّة: أنت تشبه ابني الذي مات في الحرب.

كان ذلك هو الكيتش الخاصّ بها. وكان ابنها شابّاً بولنديّاً تقليديّاً. أشقر بعينين زرقاوين، نحيل ولكنّ عظامه نفرت قبل المجاعة حتّى، ويبدو ذلك واضحاً في الصورة الممزّقة بشدّة، التي يسبح فيها رماديّ كثيف، والتي التُقطت على الطريق في أوكوبوفا. ابنها حارس القصر، قصر المياه، في منتصف الحديقة. وضعوا له صورة هناك، في المكان الذي علّقه النازيون فيه من رجليه على النافورة. وجدته أمّه على هذا النحو، صبيحة 8 تشرين الأوّل 1939، متدلّياً كأنّه مسيح بالمقلوب، وعلى الأرجح، حظي بغُرابه هو الآخر، كما تقول الأسطورة اللاهوتيّة.

ضربوها وسلبوها الفطائر، الجنود الذين ماتوا لاحقاً بدورهم. كانوا خمسة، وبعد بحثٍ في خفايا معارك تحرير وارسو، سيتبيّن أنّ واحداً منهم انتحر بابتلاع المطهّرات، وآخر تجلّد مختبئاً في مستوعبٍ لقمامة المستشفى، على بعد خمسة أمتار من دبّابة روسيّة تنبح بلا توقّف. بقيّة الجنود عادوا إلى الوطن، وحوصروا في معركة برلين 1945، كما سمّاها السوفيات، ولم ينجُ منهم إلّا جنديّ واحد، هو الذي يعرف تفاصيل القصّة. رغم أنّ ذلك الذي تاب لاحقاً، من دون أن يكون لتوبته معنىً، أصيب برصاصةٍ في كتفه، أثناء حصار الروس لمبنى الرايخشتاغ، ليوم كامل.

***

منذ اللحظة التي عبر فيها السوفيات نهر الأودر، كان واضحاً أنّ الحرب شارفت على تبدّل جذريّ في موازين القوى. تغيّرت عيون الجنود، بدأت تتحجّر، واتّجهت القطارات من هنا، من وارسو، إلى براغ التي يُعتبر دمارها نوعاً من المزاح بالمقارنة مع ما حلّ ببولندا. يتذكّر الجنديّ، وهو ملاكم من هامبورغ، النهايات. الانتصارات تنتهي، النهايات تبقى. وكونه ملاكماً يعني أنّه يعرف معنى الضربة

القاضية، ولكنّ النيّة لا تكفي للنجاة. في طريق العودة غرباً إلى الوطن دخل العائدون إلى بيوت تشيكيّة وناموا فيها. وجدوا فيها كنبات وصوراً لعائلات هربت أو ماتت وألبومات صور تفرّجوا عليها وابتسموا للطيّبين فيها. وجدوا طناجر فارغة، وصحوناً وملاعق وكلّ أدوات الحياة في أمكنةٍ مفرطة في موتها. حتّى إنّ الملاكم نفسه وجد قفّازين متروكين للعبته القديمة وقرّر أن يأخذهما تذكاراً معه لحبيبته، لعلّها تصدّق أنّه كان يلاكم الخصوم. ومن هناك، خلف الفولغا حيث تبوّل مرّة متحدّياً درجات الحرارة، مفتخراً بعروقه الألمانيّة، ونكايةً بالفلّاحين الروس، زحف الملايين من هؤلاء المشحونين بالأيديولوجيا الطازجة إلى هضاب زِيل، ووقفوا على أبواب برلين. كانت الضربة القاضية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ القيصر كان لا يزال في رؤوسهم، وكانوا يظنّونه نازيّاً. قالوا لهم إنّ النهايات ستكون أفضل. تحرير للشعوب، وعدالة اجتماعيّة، وبنادق أكثر. لم يجدوا شيئاً من هذا سوى الأخيرة، ووجدوا أنفسهم أمام الرايخشتاغ، الذي بقيت فيه كتيبة ألمانيّة متواضعة العديد ومن صغار المقاتلين، أطبّاء وجنود تنكّروا بزيّ أطبّاء، ممرّضات تعرّضن للاغتصاب، ومشرّدون بلحىً طويلة وخدود متصخّرة، لم يجدوا المزيد من القطط ليطبخوها في أوعية أشعلوا فيها نفايات الجيش لكي لا تتجمّد أوردتهم. بعد نهاية النازيّة، وصل الجيش الأحمر لتحقيق العدالة الاجتماعيّة على طريقة الذين ينتصرون انتصاراً ساحقاً. وكان ذلك اليوم هو الأوّل من أيّار، الذي يقدّسه الستالينيّون ويرتّلون فيه أهازيجهم بأصواتٍ قويّة، وبصدق قطعاً ليس نابعاً من قلوبهم. كان من شأن كلّ ذلك أن يبثّ فيهم حماسةً اسبارطيّة. هاجموا بضراوة، وجاء 1 أيار 1945 في منتصف أيّام قتال الشوارع حول العاصمة الألمانيّة وفي محيطها الزاخر

بأشجار كثيرة، وبآثار مخرجين وموسيقيّين سايروا النازيّة، فكان مصيرهم كمصير ضحاياها. خلال الحصار عبَر الذين تسنّى لهم الهرب من بوّابة براندنبورغ الشهيرة، التي ترمز إلى قوّة الألمان وشجاعة مقاتليهم. ستصبح البوّابة في ما بعد معلماً أثريّاً ينظّفه اليابانيّون والسيّاح الآخرون يوميّاً من التاريخ بعدسات كاميراتهم. كان صديقنا الناجي واحـداً من الذين تسلّلوا ليلاً تحت التاريخ، وعبر البوّابة باتجاه هامبورغ. لطالما سخر من نفسه لاحقاً كيف أنّه وقف هناك قبل شتاءاتٍ أربعة في صفٍّ من الآلاف لتحيّة الفوهرر، والفوهرر انتحر، حرقاً، لا بالمطهّرات، كالجنديّ البافاريّ الذي انتبه إلى أنّه في الخامسة والعشرين من عمره فقط، وقد مات جميع أصدقائه. في 8 أيّار، استسلمت ألمانيا وهلّل الجنود، هلّلوا للنهايات. توقّفت صيحات خمسين ألف مدفع ثقيل، وفجأة، رُكنت ثمانية آلاف دبابة على النواصي لاستراحة أخيرة، كما عادت 11 ألف طائرة مزّقت سماء برلين إلى الأرض من دون أن تجد هذه الأخيرة. في تلك المعركة، شارك تقريباً ثلاثة ملايين ونصف المليون من المحتربين، الذين احتفلوا، رابحين وخاسرين، بنهاية الحرب. الرابحون احتفلوا بفوزهم، والخاسرون احتفلوا بالنهاية، والموتى احتفلوا بموتهم. انتهت الحرب بعد أن قتلوا آدم كولودكو في حديقة واجنكي، وأمّـي وأبـي في أوشفيتز.

***

لم أرد أن أشبه آدم كولودكو. لم أرد أن أشبه الحرب في شيء. حان الوقت كي أستحمّ من ذاكرتي، وأسير كمجرى النهر عكس الحرب. أحببتهما بصدق، صاحبة الفطائر وابنها المصلوب. كانت السيّدة كولودكو على صورة أمّي التي اختنقت في حفرة. وكان ابنها مثلي لا

أنقص عنه بشيء سوى أنّني لم أحظ بمقصلة عابرة. ولكنّي لا أريد أن أكون مثلهما. لن أقبل أن أتدلّى أو أن أهتزّ بعدما أصبحت شهادتي في الفلسفة كالروث في النهر. بعد الحرب: الإعمار. الفلسفة كالأسماك النافقة في فيستولا. بدأت الكآبة تأكلني؛ لم تكن فطائر المرأة معدية، الآلام لا تنتقل بالفطائر. كان حظّها عاثراً، وابنها مسيحاً صغيراً. بدأت أتخيّل أشياء غريبة. في الفترة الأخيرة، صرت أخاف أن تطبق السماء علينا في الورشة، أو أن نرتفع إليها أثناء قيلولة الظهيرة، مع أنّنا لسنا في غيتو. قد نصبح في غيتو فجأة. قبل الحرب لم يتوقّع أحد أن تصل الأمور إلى هذا الحد. وقد تندلع الحرب فجأة. طوال ثلاثة أعوام في وارسو، لم أصدّق أنّنا ربحنا الحرب. مَن نحن أصلاً. الإنكليز؟ الأميركيّون؟ الروس؟ هؤلاء ربحوا ولكنّنا نحن لم نربح. نحن نجونا مؤقّتاً. نحن يهود وقد يهاجمنا العالم في أيّ لحظة.

***

أبي مات بالغاز. ولا أجد الشرح هنا مفيداً، كما يفعل الروائيّون الجيّدون. سيقولون إنّ عظامه خرجت من وجهه، وإنّ لونه صار أسود، ثمّ يعلّلون: ليس أسود على نحو تامّ، أسود فاتح، وقد يخترعون نتوءاً في الوجه، أو شقوقاً في الساعدين. وطبعاً، كان عارياً حين نام في حفرة الأبد. قد يضيفون أجساداً أخرى إلى جسده، فيجمعهم جميعاً تراب البلاد، وهذا الكلام الفارغ. أبي مات بالغاز. هل من حاجة للوصف؟ مخيّلة الروائيّين تصلح لوصف الأشباح أكثر من البشر. بالفعل تلك كانت مواصفات الشبح الذي رأيته، والذي يمكن أن يكون أبي. لكنّي لا أستطيع أن أجزم. أحتفظ له بصورة في رأسي، وهو يعلّمني كرة القدم: لعبة المستقبل، كما كان يسمّيها. الأشباح لا تركل الكرة، وهذا يعني أنّ أبي ليس شبحاً، كما أنّ الأشباح تظهر فرادى، وأنا دائماً أرى

أبي محاطاً بأشخاص لا أعرفهم، تجمعهم ابتسامة اخترعتها مخيّلتي لمسايرة ذكرى الراحل الكبير. لا أصدّق أنّ الموتى ماتوا، رغم أنّي أدرك أنّ الموت حقيقيّ للغاية وأنّ كلّ الذين أمامي سيموتون.

ذات صيف في 1949 جاء الصحافيّون يسألونني عن شبح ولم يهمّهم أبي في شيء. لم أشعر بأيّ رغبة في التجاوب مع الذين زحفوا كنملٍ عملاق إلى المدينة. أنا خجول بطبعي، والقادمون من نيويورك، لا يعرفون معنى أن يأكل الفرد أظافره جوعاً، وينام بعينين زائغتين كالشمع، كي لا يغتاله قلبه فيموت أثناء نومه. ظنّوني بطلاً ولو كان الأمر عائداً لي لمنحتهم كلّ هذا المجد الأجوف مقابل كتاب ضخم لهمنغواي أو تفّاحة حمراء مقشّبة. سألوني أسئلة كثيرة ورغم أنّي لم أتجاوب كانوا يتابعون الابتسام. إنّهم خبثاء، يتظاهرون باللطف، على عكس الممرّضات النازيات اللواتي كنّ يحقنّ أبناء جلدتنا بحقنة العدم. هؤلاء كنّ خبيثات ولم يتكبّدن حتّى عناء التظاهر باللطف. والصحافيّون وقحون. كي تشجّعني، قالت الصحافيّة إنّي معجزة. تلك المتذاكية كانت قد حصلت قبل يومين على قصّة مثيرة عن ذبح عائلة مكوّنة من 4 فتيات يعشن مع جدّتهنّ، وأخرى شنق النازيّون فيها 4 أطفال داخل الحديقة على سبيل اللهو، لتخرج بخلاصة أنّ الجميع مات. بلغت الوقاحة بمراسلة أخرى لإحدى الصحف الهامّة أن تصحب معها محلّلاً نفسيّاً. الحداثة. يسمّونها الحداثة. أرادوا أن يفسّروا أزمة اليهوديّ الذي نجا. سألني محلّل الحداثة عن طفولتي والذكريات التي طاردتني في أوشفيتز، فصحّحت له فوراً: أوشفينشيم. أوشفيتز هو الاسم النازيّ للمدينة المظلومة باقترانها بالمعتقل إلى الأبد. لقد أضيفت إليها لكنة الأعداء. عاد وسألني عن أمّي، كأنّه يصرّ على أنّي مضطرب، وأنّه إله السيكولوجيا. تظاهرت بالسذاجة، ولم أكن في مزاج يسمح لي بتصويب تحليلاته الفرويديّة.

أخبرته أنّ أمّي كانت خبّازة قبل الحرب ولكنّها ذهبت في قطار لم يعد. ظهرت معالم الاستياء على وجهي بوضوح تامّ، وقلت في سرّي إنّه إذا سأل سؤالاً استمدّه من مدرسة التحليل النفسيّ واستفاض فيه، فسألكمه بلا تردّد. لست فرويديّاً إلى هذه الدرجة، وعليه أن يأخذ في الحسبان أنّ أمّي ماتت بعدما أشبعوا رئتها غازاً، بينما كانت أشعّة الشمس تداعبه بسقوطها الخلّاب على الشاطئ حيث يستلقي بلا معاناة.

«مممممم». فرك إصبعين بالدفتر الممتلئ بالأحرف أمامه وصمت. عاد وقال أوشفيتز، فامتعضت، رغم محاولته الاستدراك، وهو يقول متأتئاً: «أوش... أوشفين... أوشفينيم؟».

صحّحت له مجدّداً، فبدا غير مكترث، وأصرّ على أن يعرف عن أبي. تذكّرت أبي عندما ضربني جنديّ بعقب رشّاشه على ظهري. للحظة فكّرت أن أصفعه على وجهه الأبيض المتغطرس. كان وجهه شديد البياض، ويبدو أصغر ممّا عليه لأنّ نظّارته الضخمة تستولي على مساحة واسعة فيه، كما كانت يداه كبيرتين، كيديْ فلّاح سمين. دوّن ملاحظاته التي لم أفهم ماذا سيفعل بها، كما لم أفهم لماذا يفترض أنّ الأميركيّين يهمّهم أن يقرأوا قصّة عن يهوديّ مجنون. أجبتُ المراسلة الحنطيّة بحزم أن تتوقّف عن العبث بحياتي، عندما سألتني إن كانت لي عشيقة، فطلبَت سؤالاً أخيراً. قبِلتُ بتململ يسوده الشكّ. كان السؤال على طريقة الفانوس السحريّ: «ماذا تتمنّى؟».

«أريد أن يضعوا ذراتي في عادم طائرة وينثروها فوق الغيتو». ثمّ أومأتُ برأسي اعترافاً بسخافتي. السخافة ليست عيباً إذا ارتبطت بالحنين. لا يمكن أن يلومني أحد هنا على الشاعريّة، وأنا شخص عاديّ قرأ كافكا حتّى بكى. ما زلت قادراً على أن أكون شاعريّاً إلى هذه الدرجة الساذجة. أعترف: كنت معجباً بالطائرات أكثر من

إعجابي بالسماء. لطالما كانت السماء للجميع، وهذا مزعج، أن تكون المشاركة على هذا المستوى من الشموليّة. أن يتساوى الجميع في الأفق الأخير: السماء. لا ليس عدلاً، أفضّل الطائرات على السماء، وأفضّل الهرب دائماً إلى سماوات أخرى. رحت أفكّر في كلّ ذلك متمنّياً أن تأخذ الصحافيّة قصّتها وترحل. وأنا أخطّط لموتي سال دمع على وجهي وأحرجني الأمر أكثر ممّا توقّعت. استجمعت قواي لمرّة أخيرة وسألتها عن أسماء الصبايا اللواتي نمن في الفرن. أخيراً بدت لي متعاونة، إذ ابتسمت قائلة: «بالتأكيد». أخرجت أوراقاً من محفظتها الجلديّة، وراحت تبحث بلا كلل. كانت آلونا بينهنّ. عرفت ذلك قبل أن تقوله. أربع صبايا وجدّة. آلونا الاسم الأوّل. وبلا شكّ، الأخير. أيّ معنىً للأسماء إذا تبخّر أهلها؟ البقاء للضحكات، والأنين الشفوق خلف أبواب الأبديّة الموصدة بإحكام رهيب.

***

كانت آلونا، حبيبتي، تقول إنّ عينيَّ تلمعان وإنّ فيهما بريقاً متوهّجاً كعيون الذئاب المتفرّسة. لا أتغزّل بنفسي الآن، ولكنّي كنت أجيبها دائماً بأنّي سأكبر، وسيبهت هذا البريق حتّى يخفت ببطء، فتتركني وترحل. في أعماقي كنت أعرف أنّ هذا لن يحدث، لو كنت أشكّ في اختفاء اللمعة تلك للحظة واحدة لانتحرت. لا أحتمل شكّاً جديداً يكون مؤرّقاً إلى هذا الحدّ. الموت أخفّ وطأة من السجن، يحملك ولا تحمله. يحرّرك وربما يكون عالماً بأبواب أكثر. وأنا سجين متمرّس في موته. صفعني ضابط ذات مرّة لأنّ عينيَّ لمعتا فاعتبرها إهانة. عندما قال ذلك علمت أنّي سأغادر أوشفيتز وبكيت طوال الليل مشتاقاً إلى آلونا ويدها الطريّة كالماء العذب. لطالما قذفتها بنيران شكوكي. ما كانت الحرب في حساباتي، وكنّا على وشك الزواج. كنت قاسياً أتعمّد

السخرية منها لكي أحافظ على البريق الذي لا أملك سواه، وسواها. إنّنا نسرق الضوء من الآخرين عندما نفرح. لقد قتلتها بفرحي المبالغ فيه. لا يمكن أن يكون الفرح مشتركاً أو يوزّع بالتساوي. الفرح أنانيّة متفلّتة فوق العادة. وكان البريق فرحي السرّيّ، الأنا التي تمنحني القدرة على ازدراء الوجود، كي لا يزدري بي ظلّي. في أعماقي كنت موقناً أنّ البريق لن يذهب ولكنّه ذهب. في تلك الظهيرة الفاحمة اختفت كلماتها من عينيّ وارتمت في أوراق مراسلة نيويورك تايمز. تمنّيت لو أكلني فرن بدوري، لو أنّي جعلت جسدي حطباً يدفئ آلونا. وقفت ذاهلاً وأنا أبكي. لقد ذهب البريق الذي يربطني بالعالم.

كانت إيفيت، شقيقة آلونا، تملك هرّاً أبيض وطفلاً مصاباً بالتوحّد. وكان الطفل يحبّني لأسباب لا أحد غيره يعرفها، واختارني من بين الجميع ليبتسم لي طوال الوقت. هذا بمنتهى الغرابة، لكنّي كنت أكره هذا الطفل، وأفضّل الهرّ الذي لم يطق رائحتي على وسادة إيفيت. قسوت على الطفل إلى حدّ يصعب تبريره، كنت أخشاه وأغار من الهرّ، نانو. وكما يبدو واضحاً الآن، كان بيني وبين إيفيت، شقيقة آلونا، علاقة بدأت بحوارات جادّة عن عقلانيّة هيغل وانتهت في السرير، بينما يموء الهرّ ساخطاً، والطفل ينظر إلى الجميع مستغرباً كما لو أنّه في حديقة حيوانات.

– يوزيف، يوزيف، حدّثني عن أهمّيّة العقل في قراءة العالم، ضاجعني وأنت تتحدّث عن هيغل.

– إيفيت، نحن الآن لا نبحث في جدوى الديالكتيك، لسنا ماركسيّين.

– أحبّ أن أسمعك تتفلسف، هذا يثيرني، هيّا يا هيغل!

في النهاية صارت حوارتنا مقتضبة إلى هذه الدرجة. كانت إيفيت مثيرة وتطلب منّي توظيف كلّ شيء، حتّى الفلسفة، لمصلحة

السرير، بينما كانت آلونا هادئة، خيّاطة ماهرة، وكنت أتوق إلى معانقتها والهمس في أذنيها أكثر من النوم معها. أتذكّر قصّتها النوستالجيّة عن الأشجار الطويلة التي تحوك الغيم على النحو الذي نراه عليه. كانت رقيقة وتكره الفلسفة، بينما أردت أنا حياةً مستحيلة، أنام فيها مع إيفيت في منزلها، وإلى جانب آلونا مساءً في منزلنا. عرفت لاحقاً أنّهما ماتتا متشابكتي اليدين.

ما أذكره الآن، هو صوت إيفيت، حين كانت تصرّ، وهي فوقي، على أن أناديها آلونا. لم أعرف إن كان ذلك غيرةً من شقيقتها البريئة، أو شرّاً مغرياً لا شيء يقف في وجهه. كنت أتأتئ حين تخلط بين الاسمين لإثارتي. وتفوّق عليّ نانو دائماً، إذ كان هرّاً ذكيّاً، بحيث لا يمكنك إلّا أن تحترمه، أما سيرغي فكان طفلاً متسامحاً مع الجميع، وفي أوّل الحرب مات كلاهما من الجوع.

مكتبة أهمد

14 آذار 2005

«تصيح في أقفاصها الطيور: هلّلويا. وفي هدوء الفجر، تُقرع الأجراس.»
محمد علي شمس الدين

– مرحباً.

– أهلاً جوزيف، تفضّل.

هكذا، بهذه البرودة، المرفقة بالابتسامة الوقحة عينها، استقبلتني نور في الحصّة السادسة، برداء أسود طويل وفضفاض، تعتليه لجهة الصدر زخرفات سخيفة، وفي معصمها الأيمن ساعة صغيرة لم ألمح فيها أيّ أثرٍ للوقت. كان يفوح منها عطر نينا ريتشي الذي اشتريته ذات مرةٍ لوالدة صديقتي في عيد الأمّ. وكان المنزل قاتماً وهادئاً، كما لو أنّ أهله عادوا من سفرٍ طويل ووجدوا الأشياء في انتظارهم فاحترموا سكوتها. ساءت الأمور السياسيّة في لبنان، وبدأ زوج نور يواجه مشاكل سياسيّة كما توقّعت. فهمت من أشكال الرجال الذين اجتمعوا في الصالون الموازي لصالوننا، ويفصل بيننا لوح زجاجي عملاق يتعالى من خلفه صخب يناقض صمتنا، أنّهم أشخاص في غاية التفاهة. لديهم في أفواههم التي تثرثر كثيراً سيجارات طويلة

من تلك التي يبدو الواحد منها قضيباً بنّيّاً مقطوعاً من جسد صاحبه، ولديهم زمرة من المرافقين المنتشرين حول الصالون. نتحدّث عن أولئك الذين يدسّون في آذانهم سمّاعات غبيّة ولا يستخدمون سماكة عضلاتهم لحمل الهواتف اللاسلكيّة. حتّى هواتف يمكن للأطفال أن يحملوها، وزنها خفيف، وتصدر ذبذبات مزعجة، يمكن أن تكون مسلّية لهذه الفئات العمريّة أيضاً. أخبرت نور أنّ هذا ليس وضعاً لائقاً للعزف، فاعترضت ليال، ولكنّ نور حسمت الموقف، وطلبت منّي أن أرافقها إلى محلّ يبيع الآلات الموسيقيّة. همست في أذن كبير الخدم أنّها ليست بحاجة إلى السائق، لأنّ زوجها قد يحتاج إليه وأنّها ستقود بنفسها... ولم يفتها أن تخبر زوجها أنّها ستذهب لشراء البوق الذي أخبرته عنه هديّةً لثريّ من آل صحناوي. أومأ المسكين برأسه مصدّقاً، فيما عرفت من اللحظة الأولى أنّ الحديث الذي دار لتوّه بينها وبينه من صنوف الهراء.

تمشّينا حول المبنى قليلاً حتّى أحضر السائق السيّارة بنفسه. حول المبنى، كانت هناك أشجار، ثلاث في الواقع. تدلّ أحجامها الكبيرة على أنّها مسنّة، ومن ذلك النوع الذي يمكن الرجوع إليه للشهادة على تاريخ المكان، القريب على الأقل. غير أنّها كانت أشجاراً سليبة، أشجاراً مقطوعة من شجرة أخرى. اقتُلعت من جذورها وغُرست عنوة لكي تضيف إلى الواجهة البحريّة لبيروت ما أفقدتها إيّاه الحداثة المغشوشة. وغالب الظنّ أن الواترفرونت، أو الواجهة البحريّة، هو اسم استُورد ليلائم التحوّلات في المنطقة بعد الحرب، كما أنّه مناسب لتفسير العلاقة الحميمة بين الاستهلاك والمستقبل. وليس إفراطاً في النوستالجيا القول إنّ التحريض على الاستهلاك يسبقه تحريض على المستقبل. ثمّة علاقة جليّة تقريباً بين الاثنين. عادةً ما يكون النوستالجيّون مملّين، لشدّة حذرهم من التحوّل إلى

آلات، على عكس الذين ينتظرون من المستقبل خراباً أكثر أناقة وأشدّ لمعاناً. واترفرونت لبنانيّ، ما يعني أنّه ليس كالذي يصرف مارلون براندو عليه وقتاً في الفيلم الشهير، مناضلاً في علاقةٍ عاطفيّة على النسق الأميركيّ الإيطاليّ، وفي نقابات اضمحلّت وابتلعها وحش الاستهلاك ومضغها حتّى بقيت منها صورة سينمائيّة، فلنقل إنّ بطلها هو براندو. ولا هو ذلك الذي تغنّي له بيللي هولیداي بصوتها العذب كماء يفتّت الصخر. تلك نيويورك ولها حكاياتها والاسم هناك يلامس المعنى. لكنّه هنا في بيروت اسم للمستقبل، وظيفته أن يصدّ موجات الحنين إذا باغتت بيروتيّاً قديماً وهو يجول على مقربةٍ من الشواطئ. وهي شواطئ، للمناسبة، قد تحمل اسماً استعماريّاً بدورها، كالنورماندي، فيصير بالتواتر اسماً شعبيّاً أليفاً. كانت نور مثلاً تظنّ أنّ النورماندي اسم تركيّ على شاكلة الأفندي، أو عربيّ والياء في آخره للدلالة على حرفةٍ ما يتقنها صاحب الاسم، وهذا دارج بالعربيّة، كأن يقال «جوهرجي» أو «دكّنجي». لم نتساجل يوماً في تفوّقي الثقافيّ عليها، فهذا لم يكن من اهتماماتها أصلاً. كان ترفاً طوال الحياتين اللتين عاشتهما. وكان ذلك مريحاً إلى درجةٍ لا تصدَّق بالنسبة إليّ.

***

الحياة الأولى لنور طويلة نسبيّاً وتمتدّ حتّى العشرين. كبرَت في الأوزاعي، وهي منطقة شعبيّة بالضواحي، كانت في ما مضى عبارة عن موقع تتكاثر فيه البلاجات والمنتجعات السياحيّة. بعد أحداث 1958، شهد المكان تحوّلاً ديموغرافياً ما انفكّ يتعاظم، حتّى استيقظت الأحياء مطلع الثمانينيات، ووجدت البيوت نفسها كحشود نمل تحنّطت، فصارت تحبو بعضها فوق بعض بلا ضجيج. إنّها بيوت تحبو ببطء لا يلحظه إلّا ساكنوها. غرفتان أو ثلاث، بُنيت بعشوائيّةٍ مفرطة

طبعاً، لاتّقاء شرور العواصف إذا هاجمت من جهة الشاطئ. يقال إنّ النازحين إلى المدينة صاروا خزّاناً للحرب، وإنّ الحركات المتطرّفة انطلقت من الضواحي، حيث يضيق البؤس على أهله وينفجر. وفي الأوزاعي، وجد والد نور نفسه قائداً ومناضلاً وأخاً وما شاء الله من صفات، منضوياً في إحدى الميليشيات النافذة. قاتل باسم الجميع، ودفاعاً عن الجميع وضدّ الجميع. كان مقاتلاً للعموم. اكتشف بعد الحرب أنّه أوليغارشيّ بالفطرة. انتسب في بداية الحرب الأهليّة اللبنانيّة إلى أحد الأحزاب القوميّة التي أصبحت على الموضة في بيروت بعد الحقبة الشهابيّة. واحد من تلك الأحزاب التي اتكلت على المحيط العربيّ للحصول على كلّ شيء: المال، السلاح، والأفكار الفاسدة. لاحقاً انضم إلى حركةٍ بطابع دينيّ، مذهبيّ صرف، حيث وجد نفسه، حال الكثيرين من اللبنانيّين الذين لم يقتنعوا كثيراً باليسار وأحزابه، بل انضمّوا إليه نكايةً باليمين فحسب. حاز ترقية في الثمانينيّات وصار مسؤول محور، يوجّه القادمين من الأرياف إلى أيّ اتجاه يصوّبون بنادقهم، وكيف يفرغون الآلام التي تسبّبها عزلة القرى الكئيبة. أطلق لحيةً طويلة تناسب مزاج الحقبة وأسدل في يديه مسبحة عقيق يقلّب بين أحجارها ويردّد آيات دينيّة بطريقةٍ لا تخلو من الأخطاء النحويّة الشنيعة. وكان في أصابعه خواتم، تخاف نور أن يضيع أحدها، إذ كانت تتولّى مهمّة توضيبها، كلّما ذهب والدها للصلاة. كبرت نور وكبر والدها أكثر منها، وصار مسؤولاً نافذاً في الميليشيا التي حافظ أفرادها على الشعارات لكنّهم سرعان ما استبدلوا السبحات بربطات العنق، والخواتم البرّاقة بالهواتف الخلويّة الحديثة. حصل والدها على مكافأة لائقة بعد الحرب: مسؤول عن التعويضات التي ستُمنح لضحايا الحرب. بكلمات أخرى، صار والدها مسؤولاً عن التعويض على ضحاياه، ونتج عن هذا ما نتج عن الحرب:

مكافأة المتورّطين في صناعة الكارثة. حصّته لم تكن قليلة على أيّ حال: المنزل الجديد في فردان، المنطقة الراقية تقريباً، وزواج ابنته بمموّل كبير عائد لتوّه من أفريقيا، مفعماً بالولاء للميليشيا هو الآخر.

***

كان تحليل نور لاسم النورماندي منطقيّاً أكثر من الواقعة التاريخيّة بكثير، ذلك أنّها تعنيني شخصياً، لأنّ جدّي ثقب أذنيّ بالحديث عنها. أحياناً، أوشك على تصديق جدّي: الثقافة ترف. تذكّرت جدّي، وشردت في وارسو، ربيع 1990: «انظر إليّ جيداً. فمك يشبه فم جدّتك، ما يعني أنّه يجب عليك أن تلفظ الأسماء بدقة. نُر مون دي. هذا حدث يجب أن تحفظه كاسمك يا جوزيف، فأنت بولنديّ». كان الاسم فرنسيّاً، وهي اللغة التي علّمتها جدّتي اللبنانيّة لجدّي الذي ظلّ بولنديّاً مسكوناً بأوشفينشيم لا بأوشفيتز. لم يحبّ اللغة الفرنسيّة لكنّه احترمها، كذلك الأمر مع بيروت. في طفولتي، حدّثني جدّي في وارسو عن إنزال النورماندي الشهير، وكيف وصل الروس إلى عاصمتنا قبل الحلفاء. كنت حتّى الثامنة تقريباً، لا أجد فوارق كثيرة بين وارسو وبيروت، لا أجد أيّ فوارق نهائيّاً، حتّى إنّني ظننت أنّهما مدينة واحدة. المدن للكبار فقط.

***

نور بقيت صغيرة ولم تغرق في تعريف المدينة. تلبس ثياباً زاهية تقضي وقتاً وافراً في البحث عنها بين رفوف المحالّ البالغة الشهرة، لكنّها حافظت على حجاب الطفولة. تدسّ في قدميها الكعوب العالية المثيرة، وإذا تعبت تثاقلت في مشيها كما لو أنّها تضع جرّةً على رأسها وتمضي من البئر إلى المنزل. هذه صفات حديثي النعمة، غير

أنّ المصطلح ليس عادلاً، وتنسحب منه سلسلة من الأفكار النمطيّة السائدة عن هذه النوعيّة من الناس. خلال الحديث عن الاسم، في السيّارة، أخبرتني أنّها تحبّ ما هي عليه وتكرهه في آن واحد. تحبّ نفسها وتكرهها. لا تطيق العودة إلى الشوارع الضيّقة في الأوزاعي حيث ينشر اللحّامون أجساد الحيوانات ويسلخونها أمام محالّهم، وحيث اتّسخت رائحة البحر إذ أشبعها المهملون نفايات ومجارير. وفي ذات الوقت لا تحبّ الغرف الكبيرة في منزلها، ولا الثريّات الضخمة التي اشتراها زوجها من مزادٍ علني في برلين. ولم تبدُ عليها أيّ معالمَ للرضى عندما أخبرتها أنّ الحياة ليست دائماً خياراً ولا يمكن تأثيثها بمزاجيّة العرسان الجدد. في ذلك المشوار نفسه، سألتني لأوّل مرّةٍ عن البيانو، ولماذا لم أفعل شيئاً آخر في حياتي. كان سؤالاً منفّراً، لا أحب الإجابة عنه. فوجئت بأنّي استعرت إجابتها، وأنّها انتصرت وقد أعلنت ذلك برفع الحاجبين، كأنّ الإجابة كانت غبيّة والسؤال كان فخّاً مكشوفاً، وقعت فيه بسذاجة العازفين. ليس لدى عازف البيانو ما يخسره. كلّ طرقة على المفاتيح هي خسارة أكيدة لا رجوع عنها. لقد خرجت من أذن العازف، لقد تلاشت في الأصداء وماتت لتولد بعدها الطرقة الأخرى، التي ستموت بدورها، وهكذا دواليك. قلت إنّنا لم نعد في سنّ ابنتها ليال، أعمارنا لا تسمح لنا بالتراجع. كلّ رغبة أو نشوة هي طرقة. وأنا أعزف لأنّي لا أعرف أن أقوم بشيء آخر، ولأنّ ثمّة أحداً ما، في مكانٍ ما، يريد دائماً أن يسمع. وإذ اخترت طريقاً لأدغدغ قدميّ بها، فإنّ الصعوبة ليست في المشي، بل إنّها تكمن في العودة دائماً. أخبرتها قصّة جدّي، ولماذا أنا عازف بيانو.

مجدّداً، رفعت حاجبيها، وأوقفت السيّارة. كان البحر إلى يميننا تماماً، لا فواصل بيننا وبينه، كما في الأفلام. لم أكن أعلم بوجود منطقة كهذه في لبنان، منطقة تصل السيّارة فيها إلى أوّل

البحر. لم تستسغ زجّ ليال في الحديث. ردفاها متناسقان، قوامها ممشوق، وجهها بلا حبوب، وفمها ما زال نضراً كرمّانةٍ، فلماذا أزجّ بليال في الحديث؟ أن أكون يهوديّاً أسهل ألف مرّة من زجّ ابنتها في حديث عاطفيّ مع من تحضّره لكي يصير عشيقها وهو لا يصلح لذلك. تذكّرها ليال بأنّها تتقدّم في السنّ، وأنا أذكّرها بأنّها تتراجع فيه. ولذلك كانت تفضّل أن أبقى في علبة رغباتها. ابتعدنا قليلاً عن الشاطئ، إنّه الغروب في جونية. وكانت هناك شجرة، كتلك التي حول المنزل، قلت لها: «لكنّها حقيقيّة، وتصلح لممارسة الحبّ»، فضحكت، وبدأنا. رغم أنّ بيروت مدينة موغلة في التاريخ، إلّا أنّ حتّى أشجارها ليست لها، هي أشجار ناشئة لم ينقش عليها عاشقان بوهيميان حرفي اسميهما، ولا تفيّأ بها سكّير آخر الليل من ضوء قمرٍ ينغّص عليه ثمالته، وتبوّل تحت أوراقها بسرور. يشذّب بستانيّ البلديّة أغصانها على نحو آليّ، ولا ينتبه إليها السكّان الذين وُضعت من أجلهم. قرب البحر في جونية، حفرت نور كمراهقة اسمينا على الشجرة بعدما انتهينا. أشجار الحداثة الجديدة تلك في فردان كانت على شاكلة منزل نور وعائلتها التي تدّعي سعادة غير مؤهّلة للبقاء. لقد كانت نور واحدة من تلك الأشجار، أنيقة لكن زائفة.

18 نيسان 1951

«أردنا أن نكون خيولاً، خيولاً بريئة.
أردنا أن نغادر هذا المكان. بعيداً، بعيداً من هنا.»

بابلو نيرودا

القمر في مكانه. أبيض لا شقوق فيه ولا بهتان، كالنقطة الحمراء في العلم الياباني. ناصع البياض ودائريّ كأنّه مرسوم بقلم رصاص. بدت لي وارسو صباح ذلك اليوم رقعة شطرنج ضخمة والناس بيادق متحرّكة. وكان الغيم يراقب جاهزاً للتوثّب، والمطر ينتظر. بلا مظلّات ركبنا الباص الأحمر والأبيض على عجل، كأنّنا جنود يُجمعون ليُرمى بهم على جبهة مجهولة. وجدناه واقفاً بانتظارنا باستقامة، نحن المقاتلين وسلاحنا هويّاتنا. كان باصاً أليفاً على نحو لا يُصدَّق، وشعرت بأنّه سيمدّ لي يده كي تدلّني إلى الطريق، فتكون يد أبي التي أخذتني في حياة سابقة إلى المدرسة. بعد 28 عاماً، ها أنا أعود تلميذاً يهرب. لم يتغيّر شيء سوى شكل الحقيبة ومحتوياتها. كثيرٌ من الكتب العديمة الفائدة في رحلة طويلة، بنطلونان وسترتان وأربعة قمصان، إضافة إلى

معطف كبير، كنت أرتدي أبي كلّما ارتديته. أيقنت أنّ أبي سيموت إذا ماتت يده، وأنّي قادر على إحيائه بهذه الخدعة التي أكرّرها بغباء شديد. كلّ التفاهة التي في رأسي والتي في رؤوس الجميع، كانت مجرّد حنين يحاول اختراق البؤس الذي خيّم على وجوهنا، ونحن واقفون في شارع موارنوف الذي كان جزءاً من الغيتو قبل ستّ سنوات بالضبط. لم يكن بيننا أطفال، ولا عائلات كاملة أو ناقصة. خمسة عشر رجلاً وثماني نساء ينسحبون من ذاكراتهم. كلٌّ منهم غارقٌ في خوفه الخاص. رجالٌ ونساء يتركون خلفهم منازل مسكونة بالرعب، وأشباحاً أخذت معها المفاتيح إلى الأبديّة. كانت الأبواب في حيّ أوكوبوا كما يجب أن تكون الأبواب: ألوانها باهتة وأقفالها سميكة، لا يمكن للناظر أن يتجاهلها. على رأسها أغلب الوقت قناطر حجريّة غير متكلفة، وإلى جانبها، دائماً، أحواض لتربية الأعشاب الطويلة، أدّت وظيفتها، طوال السنوات، على نحو جيّد. وكان النجّارون البولنديون رائعين. حرفيّون لا يكترثون للحداثة بل يرفضون أن يكون لها فضل على أيديهم. من نافذة الباص، رمقت أبواب وارسو بنظرة حاسمة. ها أنا أدفن مدينتي بطريقة غير لائقة. إنّه الوداع الأخير.

انتظرت أن ينظر إليّ شخص واحد لكي أبكي لكنّ أحداً لم ينظر. كان يكفي أن تصطدم عيناي بعابر وحيد لكي أنزل من الباص. تمنّيت أن يمرّ رجل واحد، أو امرأة واحدة، أو حتّى طفل، لكي أتمسّك به وأستسلم. لو مرّ عصفور متجلّد لتذرّعت به ونزلت، لكنّي كنت أغادر مدينة ميتة. وحين سأل السائق عن جهوزيّة الركّاب، فتّشت عن أيّ شيء يتحرّك، كلب ينبح ضدّي، قطّة بعينيْ آلونا، غراب نجا من زعيق المهلّلين للشيوعيّة، أيّ شيء يتحرّك كان كفيلاً بأن يمنحني الشجاعة لأصرخ: «توقّفوا، سأبقى هنا». لكنّ الكلمات بقيت في صدري ولم تخرج أبداً. صبيحة الثالث من نيسان 1951، تحوّلت

وارسو إلى وهم. تبدّدت الكائنات الحيّة ولم يبق إلّا الطريق لعبوره. كلّ شيء كان يدفعني للهروب وكلّ شيء كان يدفعني للبقاء. وكان عليّ أن أختار بين رغبتين تتنازعان في داخلي، فآثرت الرحيل إلى مكانٍ لم تتنشّق آلونا هواءه، ولو أنّه مكانٌ في الصحراء. شعرت بالحزن المتراكم، طبقة فوق طبقة، وقد حان الوقت لكي يفيض، فينهار كلّ شيء دفعة واحدة. في اللحظة التي انطلق فيها السائق نزعت من رأسي فكرة النزول، وإن كان لكلمة قرار من معنىً فقد كان عدم النزول. لم أشعر بأيّ حيرة حيال الصعود، لم يكن القرار صعباً إلى هذه الدرجة. ولكنّ الدقائق التي قرّرت فيها البقاء داخل الحافلة قبل أن تنطلق، لا تقلّ ألماً عن الدقائق الأولى في المعتقل. على الأقل، النازيّون لن يصلوا إلى إسرائيل. حزنت لأنّي هارب وفرحت لأنّي نجحت في الهرب. غير أنّي لم أذرف دمعة واحدة، بينما رأيت رفاقاً لي أفرطوا في البكاء، تحديداً لودفيك، الذي كان مثلي، بولنديّاً أصيلاً لا يعرف العبريّة.

كان خائفاً لأنّه ذاهب إلى الصحراء. إسرائيل دافئة. قالوا لنا أن نترك معاطفنا لأنّنا لن نحتاج إليها. وبما أنّنا تركنا ذاكراتنا خلفنا فلماذا نأخذ المعاطف؟ كان لودفيك موسيقيّاً هو الآخر كما أراد له والده أن يكون. سمّاه على اسم بيتهوفن. والده نجا من الاعتقال، ومن المجاعة، لكنّه انتحر قبل تحرير وارسو بأسبوعين. لم يستطع أن يتحمّل وحدته، ونقلوا له أنّ لودفيك، ابنه الوحيد، مات. يمكن تسمية هذا الموت بالموت الغبيّ. ويمكن تسمية لودفيك بالغبيّ أيضاً، إذ إنّي سأراه لاحقاً في صورة لوكالة الصحافة الفرنسيّة أمام دبّابة أضخم من الباص، يعزف بيده اليمنى على رشّاش حربيّ ويرفع باليسرى شارة النصر. في المقعد، بدا جنديّاً مستعدّاً لهزيمة جميلة. كان مثلي، بالكاد نعرف الأحرف العبريّة. هزمني لودفيك لاحقاً حين

تخلّى عن خوفه، وأنا الذي كنت أخاله صديقاً، عازفاً سابقاً مثلي على بيانو تركه الآخرون.

على عكس الجميع، لم أشعر بالريبة، وهذا بحدّ ذاته، أشعرني بالريبة. لم أشعر بطول الطريق بين بولندا وأوكرانيا، رغم أنّ الجنود الروس أوقفونا أكثر من مرّة. كانوا فرحين لمغادرتنا، وعلى استعداد تامّ لملء الفراغ الذي نتركه. حتّى في بلغاريا المسالمة، ترك الروس بصمات آلاتهم العسكريّة المخيفة. كانوا وحشاً هائلاً بلا شكّ لكي يقضوا على النازيّين. على أحد الحواجز، صعد جنديّ إلى الباص ودقّق في هويّاتنا قاصداً إذلالنا. نحن هاربون، أما هو فمنتصر. كان هذا الجنديّ مخيفاً، وجهه أطول من عرضه على نحو لافت، ويتقدّمه أنف مسترسل، وقد نبتت له لحية خفيفة كأعشاب البحر اللزجة. لم يعترض أحد، أعطينا العالم الجديد حيواتنا فلماذا لا نعطيه جوازات سفرنا. لقد نسيناها وهلّلنا بالنجاة، شيئاً فشيئاً، وفي اليوم الرابع للرحلة، كان معظمنا نسي وارسو. تتميّز بلغاريا بأشجارها الكثيرة، تناقشنا في ذلك، وفي أمور كثيرة أخرى، ونمنا لياليَ طويلة في الباص. أعتقد أنّ المحطّة الأهمّ على الطريق كانت في اليونان، حيث جُمعنا في سفينة متّجهة إلى يافا. أقنعونا بأنّ يافا اسم عبريّ، ثمّ اكتشفنا لاحقاً أنّه عربيّ أكثر ممّا نحن بولنديّون. رحّبوا بنا في اليونان، وخصوصاً الشيوعيّون من اليونانيّين، وودّعونا بعدما ملأوا باخرتنا بالأطعمة. تمنّيت أن تغرق الباخرة فيكون موتاً أسطوريّاً قبل أن تندلع حرب جديدة، إلّا أنّ أمنيتي ما لبثت أن تبخّرت إذ وصلنا في اليوم التالي إلى ميناء يافا القديم.

***

منذ اليوم الأوّل في إسرائيل، في النزل الذي وضعونا فيه إلى حين تتدبّر دائرة الهجرة توزيعنا، عرفت أنّي لن أبقى. في بولندا كان الآخرون

ضدّ يهوديّتي والآن أصبحت يهوديّتي ضدّ الآخرين. كان هذا واضحاً منذ البداية، وأنا الآن في غيتو جديد، في ظروف أفضل صحيّاً لكن لا إنسانيّاً. أتوا بنا لنشيّد غيتو جديداً، يكون لائقاً بالحياة بعدما كان السابق لائقاً بالموت. ولكنّ الغيتو هو الغيتو. لقد صدر علينا الحكم بأن ننعزل. عرفت هذا وأنا مستلقٍ وسط نقوش بديعة تزيّن الحيطان التي تركها أهلها كما تركت منزلي في وارسو. عرفت في ما بعد أنّ هذه آيات من القرآن الكريم، وأنا بسذاجة ظننتها ترجمة للتوراة. يا للغباء. هذه الأرض ليست لنا. وهذا منزل غادره أهله مقهورين، تماماً كما حلّ بنا. لقد حلّ عود نيتشه الأبديّ سريعاً.

أصابني كابوس طويل في الغفوة الأولى على السرير العربيّ. رأيت جنديّاً نازيّاً من أيام المعتقل، يدخل إلى منزلي المتروك في وارسو، ضاحكاً، بصحبة سيّدة شقراء لم يعرّفوا عنها في الحلم، ولكنّي أجزم بأنّها كانت أميركيّة. هكذا تحدث الأشياء في المنامات، نصبح أكثر ذكاءً بكثير، وأكثر غباءً بكثير أيضاً. وفي مقطع آخر من ذلك الحلم، رأيت رودلف هِس يبول على الكنبة الحمراء الوثيرة التي جلبها شقيقي، قبل أن تتسارع الأحداث، فأراني مقيّداً مجدّداً، وأساق مكبّل اليدين إلى سجنٍ في بلاد لا أعرفها. ويقيّدني رفاق لي في الجامعة. الأحلام خرافات وتعكس ماضياً لا مستقبلاً. أعرف ذلك وأنبذ الأساطير. ولكنّه كان إنذاراً داخليّاً لا يمكن تجاهله. العودة إلى وارسو باتت مستحيلة. وفي أكثر عملٍ حمقاً يمكن أن يقوم به يهوديّ، طلبت من التروتسكيّ الأخير أن يأخذني إلى مكانٍ لا يكره اليهود.

التروتسكيّ الأخير. إنّه اليهوديّ الفلسطينيّ، الذي قرّر أن يصير يهوديّاً خالصاً، فيلتحق بقوميّة جديدة. ولذلك تودّد إليّ وللجميع منذ اللحظة الأولى. كانت له علاقاته بالعرب، فهو يتحدّث لغتهم، ويشبههم، أسمر كأنّه يقضي عشرين ساعة تحت الشمس. إنّه عربيّ

بحقّ، وكان أسمر لدرجة لم نعهدها في بولندا. غير أنّه فضّل دولة بن غوريون على الشمس التي غذّت عظامه، في وقت قرّرتُ فيه العكس. صباح الشاباط، اليوم المقدّس، قلت له: «أخرجني من هنا». وبالطبع، كنت مقتنعاً بأنّ وجهتنا لن تكون أوروبا. فأنا، ما إن اقتنعت بأنّ إسرائيل لن تكون وطناً ثانياً لي، وأنّ الولايات المتّحدة خدعة كبيرة، فهمت أنّ الرحلة ستستمرّ إلى الأمام، وأنّي لن أبقى يهوديّاً. سأتبادل هويّتي مع يوسف، الذي كان تروتسكيّاً وفي دولة بن غوريون، فصار يوزيف البولندي. فليأخذ كلّ شيء، حتّى إرث عائلتي اليهودي. أريد منزلاً ومكتبة عملاقة. لا أريد انتصاراً ولا علماً ألوّح به كالمخبول. أريد حياةً أخيرة ومنزلاً لا يكون في هذه البلاد العجيبة. أريد مكاناً لا أكون فيه يهوديّاً. وافق يوسف العربي، محترماً ما يجمعنا من إرث ماركسيّ، ضاع في زحام الهويّة. هكذا تبادلنا جوازات السفر، أخذ جوازي البولنديّ، وأخذت وثيقة ولادته الفلسطينيّة. في يوم واحد رتّب كلّ شيء: صورته في جواز سفري القديم، وصورتي في الوثيقة الفلسطينيّة. الوثيقة التي ستخوّلني الحصول على الجنسيّة اللبنانيّة بمرسوم خاص، بعد سنوات ليست بقصيرة.

قال: «ستتنصّر. ستعيش في بيروت، كمسيحيّ فلسطينيّ، حياة جديدة. حياتك كما تعرفها انتهت. الآن أنت عربيّ. وعندما نقول عرب، نقصد الذين فعل الإسرائيليّون بأرضهم ما فعله النازيّون بحديقة أبي».

حملت الحقيبة ذاتها، وركبنا معاً سيّارة تصدر صوتاً أكثر ممّا تمشي. طلب منّي يوسف أن أقول إنّي أريد أن أتنصّر، وأن لا أعلن شيئاً من هويّتي الحقيقيّة. ولا أخفي سرّاً إن قلت إنّ رعباً عارماً اعتراني... عرّجنا على سيرة روسيا وأميركا، التي يحبّها التروتسكيّ الشقيّ، شتمت في سرّي جاكوب، الذي ماتت زوجته اللطيفة، وتزوّج

بعدها سريعاً. كان واضحاً لنا كلينا أنّ اللقاء بيننا لم يعد ضرورياً، وأنّنا ما زلنا شقيقين دون أن يستدعي ذلك حرارة عاطفيّة بلا جدوى. كانت فرانشيسكا أكثرنا حنيناً إلى حربٍ شكّلت بالنسبة لها حدثاً إكزوتيكيّاً. فقد نشأت في أنغولا مع عائلتها، ثمّ هربت مثل جاكوب إلى العالم الجديد. طبعاً، خلال إقامتهما معي في ربيع 1945، فوجئت بأنّها تتحدّث عن شقيقي كبطل حرب، وتتباهى بقصص اخترعها لها، عن الحرب العالميّة الثانية، كما لو أنّه كان مشاركاً فيها. أحبّت زوجته الفانتازيا، ومنحها إيّاها جاكوب الدجّال. حتّى إنّها في إحدى المرّات، على العشاء، سألتني لماذا لم أقاتل مثله، وإن كنت لا أزال أعزف جيّداً، ثمّ أردفَت هرطقتها هذه بضحكة ساخرة، فخطر لي أن أصعقها بابتسامةٍ صفراء، وأخبرها الحقيقة: جاكوب، ذلك البطل، نام في صندوق قِمامة يومين، وفي مستودع سفينة قرب عنبر الصرف الصحّي في مستودع سفينة لشهرين، فقط لكي يهرب. أمّا أنا، فبقيت، لا عن شجاعة بل من أجل أمّي. لكنّي لم أجد أيّ جدوى في إخبار زوجة شقيقي بهذا كلّه. كان لديهما ابنة رائعة، سمّياها سارة، على اسم أمي. سهرت الليلة الأخيرة في وارسو إلى جانبها، تمزّق قلبي لأنّها كانت تشبه أمّي أكثر منّي.

***

في الطريق إلى بيروت، عرفت أنّي أتحوّل إلى جاكوب، وأنّي أهرب. سرنا من فلسطين في الليل، ساعتين تقريباً، ولاحت لنا قرية كبيرة تُدعى ميس الجبل، فتوقفنا عند رفاق شيوعيّين للاستراحة، قال لهم يوسف إنّي أميركيّ هارب من آيزنهاور. بدأت أتحوّل إلى كاذب كبير، وسأدفع ثمن هذا السقوط بقسوة. أعطوني ثياباً كتلك التي يلبسها السكان هناك، أقلّ تكلّفاً من ثيابي، وأكثر سماكة. صلّوا صلاة الفجر،

وأنا أنظر إلى حركاتهم الغريبة، صعوداً ونزولاً، كأنّهم يؤدّون أدواراً على خشبة زيدوفكسي[1]. كانت صلاة غريبة لكنّها مشوّقة. بدت لي أقرب إلى عمل مسرحيّ منها إلى خشوع. إنّها جميلة مرّة كلّ عام، لن أمانع أن أؤدّي هذا الدور. علمت من يوسف أنّ الشيوعيّة في لبنان ليست إلحاداً بالضرورة، وأنّ الريفيّين الجنوبيّين اللبنانيّين دمجوا الشقّ الروحيّ من إسلامهم بالمادّيّة الماركسيّة. لم أناقشهم في شيء، فقد كانوا ودودين إلى درجة مبالغ فيها، وبسببهم، تفاءلت لأوّل مرّة منذ ثلاثين عاماً. كانت أوّل مرّة أرى فيها ما يسمّى المسلمين. كان آخر نيسان، والمطر يسقط على تلال الجنوب اللبنانيّ وديعاً كأنّه يرحّب بي. بعد الصلاة ذهبنا إلى عين إبل. استقللت سيّارة، في المقعد الخلفيّ، مع سائق ريفي، من البلدة المسيحيّة، ينقل الأجانب إلى العاصمة. وفي المقعد الأماميّ، كان يجلس راهب، فقد وافقت على التحوّل إلى المسيحيّة كما تعلمون، والبدء من الصفر. حدّثني الراهب بالفرنسيّة فلم أفهم، فرحّب بي بالإنكليزيّة. استمرّ طوال الطريق بترديد آيات من الإنجيل، كأنّه يعبّد الطريق إلى المسيحيّة. هكذا عبرت الحدود إلى لبنان، فجر الأحد، 18 نيسان 1951.

***

مساء آخر بلا أصوات. الرياح ليست محسوبة. هذا جسدها لا صوتها. ليس للرياح صوت بل لها جسد موسيقيّ غير مرئيّ. أعرف الرياح جيّداً فقد كنت صيّاداً في صغري، والرياح تحارب الصيّادين، غير أنّها حرب في الهواء لا تفسد دورة الكوكب الدمويّة. الضحيّة طرف ثالث دائماً. الخاسر في الحرب هو الطرائد. الموتى هم الخاسرون الحقيقيّون

[1] The Ester Rachel Kamińska and Ida Kamińska State Jewish Theater

لا الرياح ولا الصيّادون. لا يمكن أن تكون ميتاً وتنتصر. هراء. هذا هراء. الموت هزيمة أبديّة. دوستويفسكي مات فلماذا لا أموت. وبلا أصوات فكّرت في الموت، كما نفعل جميعاً، في لحظة ضعف حادّ. كنت وحيداً في البرد، والشعر اليونانيّ الذي قرأته زاد من كآبتي. الملائكة تدخل وتخرج من ثقب الباب. ما هذا الهراء؟! ما هذا الشِعر المؤلم؟! العالم أغلق أبوابه فجأة. زجاجة النبيذ ماتت. الملائكة ماتوا. سمعت أصداء الموت. اقتربت الرياح فخرج شبح من داخلي. غادرني ورأيته يقفز أمامي كالمجنون. هكذا يحدث الموت إذاً. يقول الشعر اليونانيّ: الملائكة تدخل وتخرج من ثقب الباب. مَن السكران فينا، أنا أم اليونانيّون؟ لا يهمّ. سأموت سكرانَ وسيكون ذلك موتاً رحيماً. صلّيت مع أنّي لم أكن مؤمناً، وأعتقد أنّي يومها بكيت قرب النافذة لأنّي صلّيت، لا لأنّي مُتّ. لأنّي تراجعت. نظر إليّ الشبح وابتسم. شبح وارسو. ابتسامة بلا وجه. روح تخرج منّي. دقّت الساعة. إنّها الثالثة فجراً. تكّت الساعة المعلقة على الجدار، وتحرّك الباب قليلاً، سمعت صريره بوضوح تامّ. يبدو أنّي حوصرت.

كان الضوء مسلطاً على كوب الماء عندما اكتشفت أنّي على حافة الثلاثين. لا علاقة عضويّة بين الاثنين، ولكنّ أشياء مثل هذه تحدث. لم أكبر وحدي، كان الجميع يكبرون أيضاً. الأعمار لا تنتظر أحداً، ولا يمكن أحداً أن ينتصر على الوقت. لكنّهم رحلوا ووجدتني وحيداً في بيروت، فصرت أكبر وحدي، بينما بقيت صورهم صغيرة في رأسي. لن يكبروا لأنّهم انتهوا جميعاً، ذهبوا إلى مكان لا عودة منه، إمّا الأبديّة أو أميركا. الأبديّة تأكيد التناقضات غير المعلنة. الخير والشرّ، الحبّ والكره. أميركا هي الجنّة، وهي الجحيم. أميركا على مقاس الجميع، لقد حرّرتنا من عبء الإنتاج، وبتحوّلنا إلى قرود جميلة تجيد الاستهلاك اليوميّ، حرّرتنا، ثمّ نقلتنا إلى معتقل جديد،

معتقل العالم. فضّلت بيروت على بروكلين ولا أندم على ذلك. في تلك الغرفة ذات الشباك المزيّن بقوس عجيب اكتشفت كبري، لكنّي في بروكلين كنت سأكتشف موتي. الكبر في أميركا غير الكبر في مكانٍ آخر، وقد غزا ترفٌ مضاعف ملامح أخي، وغرقَت زوجته برخاء لا يستند إلّا إلى هويّتها الكولونياليّة في ذلك الوقت. أمّا أنا فبقيت أكبر وأكبر حتّى انقطع نفسي. وهو يلفظ أنسجته الأخيرة، انساب الغبار كثيفاً تحت اللمبة-الفانوس، في الغرفة البليدة التي أجّروني إيّاها في الأشرفيّة. أطفأت الفانوس وقلت أغفو. في الواقع، لم يكن هناك ما يبعث على القلق. كان في بيروت الخمسينيّات جوّ متسامح إلى درجة لا تصدَّق. منحوني وظيفة مدرّس للغة الإنكليزيّة سريعاً، وإقامة لخمس سنوات على أن أحصل على جواز سفر لبنانيّ لاحقاً. لم أكن أعرف أنّي سأتزوّج لاحقاً من لبنانيّة، وأنّ حفيدي هو الذي سيرافقني إلى بولندا هرباً من حربٍ أرادت والدته تجنيبه رصاصها.

***

في الليلة الأولى في الأشرفيّة أرّقني الشبه بين آلونا وماري. بعدما صرت معلّماً للغة الإنكليزيّة في مدرسة كاثوليكيّة، صار لديّ الوقت الكافي للحبّ، الوقت الكافي لماري، مدرّسة الفرنسيّة. لم يعرف الناس الحماسة للإنكليزيّة في بيروت. كانوا قد اكتشفوا الفرنكوفونيّة خلال سنوات الانتداب. تعاملوا مع الإنكليزيّة كلغة عصريّة. يسمّونها هكذا: إكزوتيك. إنّها الشيء الوحيد الذي خرجت به من جامعتي في بولندا، لغة بلاد أخي، الذي صار أميركيّاً، وقضى بقيّة حياته ميتاً. حزنت لاتساع المسافة بين حياتينا، والذي سينسحب، على الأرجح، على موتينا. نظرت إلى علبة السجائر فوجدت فيها ما يكفي لليل طويل. لست متأكداً إن عددتها أم لا، لكنّها بدت كافية. ارتشفت

جرعة أخيرة من النبيذ اللبنانيّ وطرقت بإصبعي طرقتين على الكأس. لم يعجبني الصدى ولكنّي اقتنعت به. أزحت الكأس تعبيراً عن الرضى. الصوت أفضل من وحدة شفّافة إلى هذا الحدّ. أجّلت السؤال الهامّ: ماذا يفعل النهر في غرفة النوم؟

كان المطر يسقط بغزارة حاملاً وجوه الرفاق في أوشفيتز وضحكاتهم الباقية من الأعوام الفائتة. حمل دموعهم أيضاً ولكنّه صفّق بوتيرة لا تترك مجالاً للالتباس. المطر ضحك الموتى على الأحياء. كانوا يضحكون عليّ. النافذة بعيدة عنّي ستة أمتار تقريباً، مفتوحة على كلّ الاحتمالات. تركت المطر، قرّرت أن أكون جدّيّاً. قد يصل الماء إلى فراشي إذا بقيت مستسلماً. فراشي على الأرض فأنا أخشى الأسرّة وتذكّرني بالمعتقل. لم أرد أن أقع عن السرير ثمّ يقع عليّ السقف. أردت أن يحدث الأمر دفعة واحدة في حال حدوثه. والآن جاء المطر ليفسد ترتيباتي المضادّة للموت على مراحل. فكّرت أنّه قد يكون زلزالاً، يحدث تدريجاً، كما لو أنّه فيلم فرنسيّ يُعرَض على البطيء. ربّما الأسرّة مضادّة للزلازل، لا أفهم في الجيولوجيا. الصوت قريب جداً، التدفّق السماويّ الرهيب ابتلع آخر معزوفة لتشايكوفسكي، بحيرة البجع. وحلّت رياح قويّة في الغرفة بات طردها أمراً مستحيلاً. وجدت أنّ الغطاء بعيد، متر ونصف تقريباً. وتقريباً، هذا بعيد جداً بعد كمّيّات وافرة من النبيذ الأحمر. لن يزيد البرد الوضع سوءاً. استسلمت للعراء وارتجّت على الحائط خلفي لوحة رديئة عليها رسم كلاسيكيّ لمعلم فرنسيّ شهير: مولان روج. اهتزّت الطاحونة الحمراء ووقعت بفعل الرياح، كما كان متوقّعاً. صرت ملزماً بالنهوض. إذا وصلت المياه إلى اللوحة فستفسدها، ولن تدور أجنحتها بعد اليوم. رغم ذلك لم أنهض. إنّه على الأرجح الكسل التي تسبّبه الكحول. لم أنهض وأقنعت نفسي بأنّ قراءة النوتات ستثنيني

عن الانشغال بإحصاء كمّيّة المستنقعات العبثيّة التي تركتها تطفو تحت النافذة مباشرةً. انفلشت حتّى صار لونها برّاقاً على البلاط البنّيّ، وانفلشت بدوري بين كلمات تصهل في رأسي ولا تصل. كتبت معزوفةً إلى أمّي، إلى ذلك القطار الأبديّ.مكتبة أحمد

آثرت عدم الاستسلام. لن أنهض مهما كلّف الأمر. أغمضت عينيّ وأسلمت سمعي للعاصفة. رسمت شكل ساكسوفون في يدي، ورحت أعزف الموسيقى التي تخرج من راديو بيروت. حرّكت رأسي يميناً ويساراً، مستمتعاً: ساكسوفون مجّانيّ أنفخ فيه بلا حسيب. مضت ساعة على هذا النحو حتّى تخدّرت كتفاي جرّاء عزفٍ ليس لي. ولكنّي لن أنهض. رنّت الآلات في رأسي، وجاء الصوت الرخيم عبر سمّاعة الهاتف المثبّت بطاولة مستديرة كأنّه جزء منها: «تأخّرت». أعقبته تنهيدة خلّابة، فانتهى الموسيقيّ من لهوه. لم أعاود المحاولة. بدا الصوت صادقاً جدّاً، فاقتنعت فعلاً بأنّي تأخّرت، دون أن أعرف عن ماذا بالضبط. بعد دقائق سطعت الشمس. لم أرمقها. لا أحبّ الضحى. لديّ اقتناع بأنّها دائماً تحمل أخباراً سيّئة، وأنا لست شجاعاً بما يكفي وأهرب دائماً. أطفأت عينيّ، وأطفأت الراديو، فلم يبقَ في الغرفة سوى ضوء قليل تبعثه لمبة صغيرة إلى جانبي. اشتدّت الرياح، وشعرت بالقطرات تلامس وجهي أخيراً. لقد وصلت العاصفة، والاتصال الهاتفيّ كان هذياناً.

لم يعد بإمكاني أن أبقى متفرّجاً. اقتحمت المياه الغرفة. وقفت ممتعضاً واتّجهت إلى النافذة العريضة. فعلت ما وجَب عليّ فعله منذ ساعات. أغلقتها برفقٍ مبدياً اعتذاري عن هذه القسوة. لم يتطلّب الأمر أكثر من ذلك. افترضت أنّ إبقاء الستائر مفتوحة، سيكون تسوية مناسبة، كي لا أشعر بالعزلة التامّة. تبلّلت قدماي بماء بارد تسرّب إلى رأسي فارتعشت بؤساً، وعدت إلى فراشي مكسور

الخاطر. تركت الستائر مفتوحة إذاً، وتالياً، بقي البرق العملاق لامعاً. سوّيت الأمر بدبلوماسيّة مع الستائر ولكن كان الأوان قد فات ودخل المطر. وكما في أوّل مرّة، تقاعست. ثمّ طرق أحد ما الباب. فتحته بعد تردّد، وإذا بها ماري بمعطفها الأسود الطويل.

1 نيسان 2005

«بيوتٌ مُرتَجلةٌ في العراء
لم تكتمل بعدُ
ولم يقطنْها بعدُ
أحدْ
لكنّها، منذ البَدءِ، مأهولة بشخصِ الذكريات.»

بسّام حجّار

في المبدأ، ليس على عازف البيانو أن يكون عارفاً بالتاريخ. لكن صودف أنّي من أصول لا يمكن نثرها على طاولة السجالات في معرض أخذٍ وردّ. لطالما تضايقت من هذه الحقيقة، وتضايقت من صعوبة تفسيرها إذا وجدتني مضطرّاً لذلك. يسأل اللبنانيّون كثيراً عن الهويّة والأصل والمنطقة وأمور كهذه، ويقيّم معظمهم بعضهم بعضاً استناداً إلى الأجوبة. امتعضت نور من دفاعي عن اليهود في معرض حديثٍ دار بيننا في جونية. وحالها حال كثيرين من اللبنانيّين، وجدَت الفصل بين الخلاف السياسي مع إسرائيل والهويّة اليهوديّة أمراً بلا جدوى. كان فخّاً. ونور لم تفوّتها، سألتني عن سبب غضبي، فانزلقت. أخبرتها

أنّ جدّي يهوديّ. صحيح أنّي لبنانيّ، لكنّ أصولي بولنديّة، ويهوديّة. وعلى عكس توقّعاتي، لم تبدِ أيّ انفعال.

لم تكن ممتعضة إذاً، بل ادّعت الامتعاض. داعبت شعري بشغفٍ، وأصغت باهتمامٍ شديد إلى طفولتي. أشياء لطيفة، شذرات كحكايا الجدّات. أبٌ يموت في الحرب، وجدٌّ بولنديّ يصير لبنانيّاً بعد بضع سنوات، بمرسوم خاصّ، وجرّاء وثيقة حصل عليها بالصدفة.

كان ذلك شائكاً، أن أشرح لنور أنّ جدّي بولنديّ، وأنّه لم يصبح لبنانيّاً إلّا حين استفاد من مرسوم خاصّ كان قد صدر في حينها لتجنيس المسيحيّين الفلسطينيّين تحديداً. حتّى إنّه، إلى جانب اللبنانيّة، مُنح أبي الجنسيّة البولنديّة، بعدما رتّب أوراقه واستعادها من القنصليّة البولنديّة، مستعيناً بشهادة جامعيّة في الفلسفة كان قد هرّبها معه. أخبرتها كم أحبّ جدّي، وكيف أنّي قضيت معه السنوات الأولى من طفولتي في وارسو يوم هرّبتني أمّي من الاجتياح الإسرائيليّ لبيروت، لكي لا تأخذني الحرب كما أخذت أبي.

***

لم أذهب إلى كنيس في حياتي، حتّى في بولندا، حيث نشأت. وكنت أظنّ أنّ الدين هو حالة واحدة لا اختلاف فيها، أي إنّ الدين كالسباحة، أو كقيادة الدرّاجة الهوائيّة، أو حتّى كتناول العشاء. شيء نفعله على نحو ثابت ولا مذاهب فيه أو اختلافات. وكان جدّي مثلي، رغم فارق العمر بيني وبينه، وطبعاً، فارق التجربة الشاسع. وأقول تشابه، لأنّ جدّي كان يهوديّاً في بولندا، ومسيحيّاً في لبنان، وعدميّاً في قرارة نفسه. أذكر جيّداً بيتَي الطفولة اللذين ترعرعت فيهما، لم أكن أستطيع تمييز الفوارق بين المظاهر اليهوديّة ومثيلاتها المسيحيّة في المنزلين، حتّى مرحلة متأخّرة. لقد كانت صورة الحاخام التي تُركت

في المنزل الوارسوي تشبه لوحة القدّيس يوسف الملوّنة في منزلنا بالأشرفيّة. كنت أظنّ أنّهما شخص واحد، وأنّ فرق الألوان ناتج عن تقدّم الزمن.

لم يكلّف جدّي نفسه عناء التملّق، وكان يتصرّف كيهوديّ مع الذين يأتون لزيارته كما لو أنّهم يحجّون أو يتبرّكون من أيقونة. لاحظت دائماً كم كان ذلك مزعجاً له: ادّعاء الحكمة.

كان قاصّاً ممتازاً، وخاصّةً عندما يبدأ على النحو الآتي: بين مدينة بجيشتا وقرية أوشفينشيم، وعلى مقربة من ضفاف نهر سولا، كان المعتقل الأسوأ في تاريخ البشريّة. سرد جدّي هذه القصّة عشرات المرّات، وسردها بعده آلاف الكتّاب. في البدء، أتوا بهم من هولتسشينر لاندشن، 1200 لاجئ بولنديّ عاطل من العمل. 300 منهم عملوا في بناء المعتقل وماتوا فيه. شاركت 500 شركة كبيرة وصغيرة من الرايخ في عمليّة البناء. قرأ جدّي لاحقاً عن الموضوع، جدّي ليس من الثلاثمئة. توزّعت المهامّ على 500 شركة من الرايخ، بين معدّات وهندسة وعمارة، لم تحاسَب كلّها بعد الحرب. أوشفيتز هو معسكر الاعتقال النازيّ السابع، بعد داخاو، ساشزن هاوزن، بوخنفالد، فلوسنبورغ، ماوتهاوسن، ومعسكر النساء في رافنسبروك.

في أوشفينشيم كانت المباني ميتة والثكنات نائمة تحت أنقاضها، وكان المشهد قاتماً وخريفيّاً، محاطاً بمستنقعات تطفو عليها فقاقيع الملاريا السامة. وكانت مصادر المياه الجوفيّة هناك شبه معدومة، والاعتماد على المطر يكفي المستنقعات لتخزين الوحول والسراخس التي تنمو حولها بيأس يتفاقم. يعتقد جدّي، ممّا سمعه، أنّ المحقّقين الألمان زاروا المكان وتفحّصوا المجمّع جيداً قبل اتخاذ القرار ببناء المعتقل في نيسان 1940. كان الموقع ممتازاً بالنسبة إليهم، حيث كانت هناك إمدادات من أجل المواصلات، كما

أنّه كان على مقربة من سكك الحديد، وفي الوقت نفسه، من السهل عزله عن العالم. لقد أثار الأمر إعجاب هملر، الذي إذا ذُكر اسمه، حلّ بوجه جدّي ما حلّ بنيكيتا خروتشوف، عندما بصق على ستالين وهو ممدّد في سريره الأخير.

في 27 نيسان 1940، بدأ العمل ببناء المعتقل.

تحدّه من الغرب مبانٍ كانت تستخدمها الشركات التي تحتكر التبغ البولنديّ، وقد احتُجز فيها السجناء البولنديّون بدايةً قبل ظهور المعتقل الضخم. وهنا، في بداية حديثه عن أوشفيتز، كان جدّي يحرّك يديه في الهواء دائماً. أذكر تلك الحركة جيّداً، صعوداً ونزولاً بالسبّابة، حين يتحدّث عن الملابس المقلّمة التي ألبست للسجناء. لم يكن بينهم من عرف شركات التبغ، ولكنّ جدّي كان شيوعيّاً، وكان مهووساً بالنقابات والعمّال، فكان يعرف هذه الشركات وموقعها في المجتمع البولنديّ. المزارعون والتبغ و«يا عمال العالم اتحدوا» وشعارات كيتشيّة من هذا النوع. يستفيض أحياناً في شرح طبيعة الشركة الرأسماليّة، ورغم تحوّلها إلى معتقل شنيع، لم ينسَ كيف كانت في زمن أسبق استغلاليّة بحقّ العمّال وكيف ابتلعت حقوقهم. على مقربة من تلك الشركات البائدة، أقام النازيّون المنشآت الصناعيّة التي عمل فيها السجناء. كانت صناعات جديدة على البولنديّين، وكان معظمهم على غير علمٍ بما يصنع سخرةً. على عكسهم، كان المهندسون يعرفون جيّداً ما الذي يصنعونه بتلك الآلات الفولاذيّة الضخمة ليضعوه على طاولة الحرب الطويلة. وبين المنشآت ومباني التبغ من جهة والمعتقل من جهة أخرى، كانت سكك الحديد هي الفاصل، تليها أعشاب يابسة.

ذات مرّة، سألت جدّي لماذا لا يوجد أيّ قطار في بيروت، كان ذلك عقب انهيار جدار برلين، والحديث عن تحرّر وارسو من

الشيوعيّة. كان الوارسويّون يمنّون أنفسهم بقطارات كتلك التي في ألمانيا الغربيّة. قال جدّي إنّ هذا أفضل، أي أن لا يكون هناك قطارات. كطفل، كانت سكك الحديد بالنسبة إليّ بمثابة لعبة عملاقة تنتظر ذلك الثعبان الآليّ السريع لكي يدهسها بقسوة، فيما كانت بالنسبة إليه أشبه بحفّارة من الماضي تنخر صدغه. صوت احتكاكها بعجلات القطار يعني شيئاً واحداً: الجثث التي ستنزل مندهشة من العربات وتسير بخطى متعثّرة إلى موتها. عندما وصل إلى هناك، وانفتحت العربة ليتنفّس أخيراً إذ كان محشوراً مع عشرات آخرين لا يعرف عنهم إلّا سعالهم واختناقهم، لم يستطع أن يستعيد بصره فوراً. وبعدما رأى تمنّى لو أنّه ترك عينيه في القطار، أو في حمّام المنزل الذي أُخذ منه مدفوعاً إلى شاحنة ضخمة، تحت وابل من الركلات والزعيق. في أوّل المعتقل سُيّج جدار ضخم، يفصل بين البلوكات الكبيرة المحاطة بأسلاك شائكة مكهربة. لم يختلف كثيراً عن جدران الغيتو، ولكنّه كان معزولاً إلى درجةٍ لا تحمل أيّ التباس، أي إنّ هؤلاء الأولاد الذين كانوا يتسلّلون من ثقوب في كعب الجدار ويعودون مع فضلات قليلة لتأكلها عائلاتهم، لن يظهروا في المعتقل. لقد أُعدّ لكي يكون جداراً ولم يفكّر أحد بتسلّقه. على أطراف المعتقل، من الجهة الغربيّة، لا الشماليّة حيث كانت البوّابة الشهيرة، أُنشئ مبنى صغير، كان يُدعى «مبنى المسرح»، ولكنّه استُخدم لتخزين الذخائر. وقد كانت ذخائر بكمّيّات وافرة، مُعَدّة للاستخدام ضدّ آلاف المعتقلين العزّل. يجب أن يُحدث الاسم وقعاً ما هنا: مبنى المسرح. على بُعد أمتار منه، خُصّصت مساحة للإعدامات الفانتازيّة، وهي خارج دائرة الأسلاك الشائكة، وعبارة عن حُفَر من الحصى كان يُرمى فيها المعدمون بعد تصفيتهم. ومن الشمال، حيث كانت البوّابة، أقيم

مبنى للإدارة المركزيّة، تمدّد قليلاً في مطلع صيف 1944. فقد ازداد عدد الإداريّين تزامناً مع ازدياد عدد السجناء.

إلى يمين هذا المبنى الرئيسيّ، الذي صُمّم على شكل حرف E، أي كرواق طويل تتفرّع منه 3 غرف أساسيّة لجهة اليسار، كانت هناك أربعة بلوكات مستطيلة، يتبعها خامس شبيه بها لكن يفوقها ترتيباً، خُصّص لضبّاط دائرة الحبس الاحتياطيّ. وقد ارتأى هؤلاء تخصيص مساحة مع حُفَر من الحصى بدورهم قرب المبنى الذي سكنوه. إلى جانب هذا المبنى بالضبط تقابلك البوّابة الشهيرة، التي كُتب عليها بالألمانيّة: «Arbeit macht frei». وهي عبارة معناها: «العمل يجعلك حرّاً».

إلى يمين البوّابة، إذا كنّا ننظر إلى المعتقل من الأسفل، من جهة النهر تحديداً، أقيمت منشآت صناعيّة أيضاً، وفي آخرها، كانت ثمّة بقعة أخرى للإعدامات، شرق المعتقل. وفي أقصى الشرق شُيّدت عدّة مبانٍ صغيرة محاذية نزولاً باتجاه النهر: «المبنى ب»، وأوّل بلوكاته هو الأشهر. عنابر الغاز. بعده مباشرةً، «المبنى ن»، أي المبنى السياسيّ، وهو مخيّم الغستابو. وخلفهما تماماً، مسافة فاصلة من الأعشاب أيضاً، مساحة لا يُستهان بها، قبل أن يصادفك «المبنى ت»، وهو مركز الحرس الرئيسيّ، الذي يسبق «المبنى و»، وهو أفخم المباني، يضمّ فيلّات القادة الضباط. في واحدة من هذه الفيلات على أطراف المعتقل، جنوب شرقه تحديداً، أقام هملر يوماً ما. إلى اليسار، وفي «المبنى س»، كانت هناك مباني الضباط. وفوقها مبنيان: «المبنى ر» الذي خُصّص للإدارة، و«المبنى ك» الذي خُصّص لمعالجة العناصر المرضى من الشرطة السرّيّة. فوق هذا المبنى، كان هناك «المبنى آي» وهو عبارة عن ثكنات المشرفين المباشرين على البلوكات. وبين مبنى الذخيرة، وهذه المباني الثلاثة السالفة الذكر

(ر، ك، آي) تستكين الغرف الرئيسيّة الكبيرة في المعتقل، التي تحتجز أصوات أهلها، الغجر الرومانيّين واليهود، والمحاطة من كلّ الجهات بنقاط مراقبة ثابتة.

نحن في منتصف أوشفيتز الآن، يقول جدّي. ويشرح...

من اليمين، يقود العنبر الأوّل إلى ثلاث غرف أفقيّاً وثلاث عموديّاً، رُقّمت مرّتين في تاريخ المعتقل، وخُصّصت إحداها ليكتب فيها السجناء، وقد نجت منها بعض الكتابات التي شكّلت سبيلاً للتعرّف إلى بعض خبايا المعتقل. المجمّعات التي في المنتصف توزّعت على صفّين، ضمّ كلّ منهما أربعة عنابر. فوقهما مطبخ السجناء الصغير، وتحته المقصلة التي استُحدثت عام 1943. أمّا الجهة الغربيّة من البلوكات في الداخل، فتوزّعت على ثلاثة صفوف طولاً، في كلّ صفّ أربعة عنابر، باستثناء الصفّ الأوّل شمالاً، الذي ضمّ عنبراً إضافيّاً، وهو عبارة عن صندوق بريد للثكنات. تحته تماماً، وقبل الصفّ الثاني، أقيمت غرفة للتعذيب. أُعدَّت بعض العنابر لتكون مستشفيات لكنّها أصبحت مختبرات استُعمل فيها السجناء كفئران تجارب. وفي أسفل هذه العنابر، لجهة أقصى الغرب، أي إلى اليسار، كان هناك «العنبر ص»، ويسمّيه السجناء عنبر الموت، يفصله فاير وول عن «العنبر ي»، الذي خُصّص للأبحاث التي أجريت على أجساد السجناء.

في بولندا، وبعد عوته، ردّد جدّي هذه القصّة عشرات المرّات أمام عشرات الزوّار. استعادها عشرات الكتّاب وتناقلتها مئات الأبحاث، ولم يصدف أن التقيت لبنانيّاً واحداً يعرفها.

***

لطالما ردّدت نور أمامي أنّها لا تمانع أن نكون من ديانتين مختلفتين، وأنّ هذا ليس عائقاً في علاقتنا. وكان هذا يشعرني بالضيق، إذ اعتبرته

دائماً في مصاف الكلام اللبنانيّ المعسول عن الطائفيّة بين اللبنانيّين، التي أودت بحياة الآلاف منهم. كان عليها أن تنتبه إلى أنّي نشأت مع جدّي في وارسو، وأنّي لا أستطيع التحرّر من عقدة الأوروبيّ المستشرق طوال الوقت. ولكن بعد سماعها قصّة أوشفيتز، التي بدت لها مثيرة فعلاً، أخبرتني بعض الحقائق الهامّة. نور أيضاً صاحبة جذور يهوديّة. نور مسلمة بالصدفة، كما أنّي مسيحيّ بالصدفة.

كانت جدّتها الأميركيّة سارة، التي تشبهها كثيراً، متزوّجة بيهوديّ مهاجر إلى أميركا، اسمه إيهود. أنجبت سارة من إيهود ابنتين جميلتين، هربت إحداهما من أميركا مع شخص مسلم، ليس سوى صديقنا الميليشوي، الذي صار مسؤولاً محليّاً كبيراً، قبل أن تموت في بيروت، أوّل الحرب، بعد سقوط قذيفة على منزلهم في رأس النبع. كبرت نور بلا أمّ، كان هذا المقطع في حديثها مؤثّراً. فهمت من نور أنّ جدّتها قضت قبل بضعة أعوام في نيويورك، وأنّه لم يبق من إرث العائلة اليهوديّ سوى خالةٍ هاجرت إلى أوروبا ولا تعرف عنها شيئاً.

آلونا، سارة. كان جدّي قد كتب لي الاسمين على دفتر النوتات الصغير، إلى جانب رسم كبير لأبطال الكرتون، ونوتات معزوفة «أيلول» لتشايكوفسكي... أوصاني بأن أختار لابنتي اسماً من هذين الاثنين فقط. لم أخبر نور أو أيّ أحد آخر هذا السرّ، رغم أنّها، عندما استفاضت في الشرح، شعرت بأنّ ثمة خيطاً يربط أحدنا بالآخر. خيط رفيع يمكننا أن نشعر به، ولا نلتقط طرفه. لو كان ذلك ممكناً، معرفة التاريخ بدقّة، أو حتّى قراءة المستقبل، لما خرجت سارة، جدّة نور، إلى عملها في مبنى برج التجارة العالميّ، صبيحة الثلاثاء 11 أيلول 2001.

14 آذار 1951

«لنبق هادئين كرجالٍ أحبّوا دائماً الحروبَ الطويلة،
ولم يفتهم أن يفكّوا أعصابهم قبل النّوم.»

فادي أبو خليل

إنّها السابعة صباحاً، وماري حضرت لتصطحبني إلى مدرسة القلب الأقدس كما اتّفقنا، لنحتفل بشيء لا أعرفه. لديها عاداتها واحتفالاتها، ولم أكن مهيّأً للاعتراض على شيء، ما يهمّني كان فرح ماري. في أيّ حال، القلب الأقدس اسم يرنّ في أذنيّ لأنّي زرت باريس مع والدي عندما كنت طفلاً، وقد بدت لي الكنيسة تلك أكبر من قريتنا كلّها وأجمل منها. قادتني ماري من يدي، ومن يدها لمست منسوب أنوثتها، هي التي ستزور كاتدرائيّة سان كور لاحقاً مع ابننا فادي لتقابل هناك أخي جاكوب، أو يعقوب بعربيّة ماري اللطيفة. ماري هي المرأة النهر، قد تفيض مثل السين أو مثل نهر بيروت الذي نجا من الطوفان. نجا لأنّه اختفى.

في الطريق أشارت إلى نفق ضخم، وقالت إنّ تحته نهراً يجري، أو كان هناك نهر يجري، يقف العشّاق وينظرون إليه، وقبل الظهر يأتي الأطفال للفرجة، كما فعلت أنا على ضفاف السين، وخفت من السقوط. يد ماري وهي تشير إلى مكان النهر السليب على الطريق كأنّها يدي، هويّتي الحقيقيّة التي تسافر معي. رغم أنّه كان قد أصبح لديّ هويّة هنا، فقد عمّدني الأب بولس حدّاد فور وصولي إلى بيروت، يوم اصطحبي إليه رفاقي الجنوبيّون الذين رتّبوا أمر عمادتي وتولّوا كلّ شيء. هكذا أصبحت مسيحيّاً. لم يكن عليّ سوى تلاوة بعض الجمل، وإشباع البصر باللوحات الزاهية في الصرح الدينيّ، وإحداها ليوحنّا المعمدان وقد رأيت رجلاً يشبهه على لوحات مختلفة في منازل أصدقائي البولنديّين، وأخرى للمسيح، الذي كان في بيروت أكثر جذلاً وابتساماً من نظيره البولنديّ.

وأنا في طريقي إلى الكنيسة مع ماري، نسيت لوهلة أنّي كنت يهوديّاً في الأساس، وخطر لي أن أخبرها أنّ الربّ يتّخذ في الصور شكل البلاد التي يعيش فيها، كنت مبتهجاً بما اعتبرته تفاؤلاً بالمدينة الجديدة.

عند المدخل، نظر إليّ أحد الكنّاسين بريبة فبادرت على غير عادتي إلى تحيّة الرجل العابس عبوساً يبدو مضاعفاً فوق شاربه الكثيف، بكلمة فرنسيّة تعلّمتها من ماري وكانت تردّدها بلطفٍ لا متناهٍ: «بونجور». غير أنّ حيلتي لم تنطلِ عليه إذ بدت لكنتي الفرنسيّة هزيلة، لدرجة أنّ ماري نفسها استدارت وضحكت بغنج. لا أدري إن كانت التفاتتها تعاطفاً معي أو مع الكنّاس الذي يحرس تماثيل العذراء البيضاء من الغرباء، ويلحسها بعينيه متضرّعاً أن ترتفع قليلاً، أو ترشح دمعاً، حتّى يهرع إلى النصب ويركع أمامه صائحاً: «يا مريم يا مريم».

يقضي ذلك الرجل ساعات في الشمس، حول التماثيل والأنصاب، خادماً زخارف المعبد الجميلة، من دون أن ينتظر أيّ مقابل، سوى أن ترشح العذراء، أو تحدّثه السماء، أيّ إشارة من شأنها أن تهدّئ قلبه وتضمن له سريراً في الجنّة وربّما قبّعة مقدّسة تحجب عنه ألسنة الجحيم. الكنّاسون والرهبان يحلمون بتوفير عناء البرزخ، حتّى القدّيسون منهم الذين صنعوا في خيالاتهم أرواحاً لتلك التماثيل واللوحات، فتحدّثوا مع العذراء وطمأنتهم. انتظار الجنّة اعتراف مبكر بنهاية الحياة، كان ممكناً أن أصل إليه في المعتقل بلا شروح وأساطير، لكنّي مشيت مع رفاقي الجنوبيّين في رواقٍ طويل إلى ربّ جديد، على الأقلّ لن يكون سبباً باعتقالي.

تجاوزت عبوس الرجل، وارتبت من شاربيه مجدّداً، حتّى عندما توقّف عن متابعتي بطرف عينه وأنا أتقدّم إلى صدر الكنيسة. بصراحة بدا لي هذا الكنّاس جنديّاً في جيش هتلر لم يتصالح مع توبته من القوميّة الألمانيّة بعد. ورغم أنّ هذا ينطوي على تحامل كبير، إلّا أنّ معضلة المشاعر أنّها توجد للاعتراف بها فوراً، وطردها لا ينفي وجودها. لقد كان الكنّاس غير لطيفٍ إطلاقاً بلا سبب. بالنسبة إلى مصاب بجنون الارتياب مثلي، كان نازيّاً.

في ثانية تبدأ الحرب وفي ثانية تنتهي. أصعب ما في الحرب الضغوط التي تسبقها، والأوزار التي ترسو في القلوب بعدها. الحرب كحرب تمرّ في ثانية. طوبى للموتى لأنّهم يكتفون بالنهايات، تكفيهم ثانية واحدة. مرّت الخطوات في الرواق ببطء وكانت قرقعة حذاء ماري العالي تحفر في قلبي مزيجاً من الرغبة والملل. حاولَت أن تخمد رغبتي فضحكَت على فرنسيّتي الهشّة، كما حاولت أن تكسر الملل بثرثرة عابرة عن أنّ الأشرفيّة هي أعلى هضاب بيروت، وأنّ الطقس يُعدّ بارداً هنا، عندما تذمّرت من الحرّ، أنا الذي اعتدت الصقيع.

حفّت يدي بيد ماري النديّة. نظرت إليها ونظرت إليّ. ابتسمنا كأرنبين، وأقول هنا أرنب لأنّي كنت قد ربّيت أرنباً في وارسو، كان اسمه جيوكو. احترت دائماً في أمر هذا الأرنب لأنّه لم يجد أرنبة ينام معها، حتّى إنّه مات من الجوع في الحرب من دون أن يجدها.

أنا وجدت ماري.

وهي تدير يدي بدلاً من مقبض الباب، ابتسمت لها. وعندما ردّت على ابتسامتي بمثلها، لمعت عيوننا ذلك اللمعان التقليديّ الذي رأيته في عيني آلونا ذات يوم ولم أفهمه. وكأنّ خجلنا كان ناقصاً واكتمل. وعندما خجلنا وجدنا على الخدود حطباً سنوقده لكي نبقى. كلّ شيء بيني وبين ماري سيكون بسبب هذا الحفيف اللامقصود. بسبب اللحظة، والباب الضيّق الذي أخطأ نجّار في تصميمه، لكي تمسّ يدي يدها صدفة. النجّار، وحده، أنقذني بلا تكلّف، بلا حسابات، ولم يفلح الجيشان الضخمان، الأميركيّ والروسيّ، في إنقاذ علاقتي بآلونا. غادرني الملل. كدت أسلّم على أشجار الحور القريبة، تلك الأشجار الخضراء أبداً، رغم قسوة السنديان الذي يجاورها. ترتفع كأنّها تتحدّى السنديان القويّ وتعلن استقلالها التامّ عنه. كدت أربّت كتفي ماري كأنّنا في علاقة منذ سنة. كأنّها آلونا التي لطالما حلمت بأن تصبح معلّمة. بصراحة كانت مدرسة ممتازة تلك التي أقيمت الكنيسة على طرفها، كانت ستروق آلونا كثيراً. يحيط بها جوّ بولنديّ، لكنّها تحوّلت إلى مستوصف خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة، وكانت في حيّ يُسمّى الشيّاح. ثمّة ما يقال عن المدرسة وعن ماري. إنّهما توأمان، الفارق البسيط أنّ ماري مستوصفي أنا، بينما المدرسة مستوصف الحرب. ولا أجد فارقاً بيني وبين الحرب. كانت الأشجار باخضرارها الذي أعجز عن تفسيره، كعينيْ ماري، اللتين أعجز عن تفسيرهما أيضاً. كانت الأشجار عيني المدرسة، وكانت البوّابة الخشبيّة الواهنة فمها. وقد

ارتفع على إحدى طبقاتها علم لبنانيّ يرفرف بلا سبب، كأنّه الأنف، يشتمّ رائحة الغرباء ذهاباً وإياباً مستسلماً لريحٍ لعوب. وكانت مدرسة صمّاء لا تسمع. لقد كنت أنا الحرب، وكانت ماري هي الشجرة.

أخيراً باحت لي بهدف زيارتنا للكنيسة التي صودف أنّها ذاتها التي تعمّدتُ فيها مسيحيّاً قبل شهور قليلة: كنّا آتيين لنشارك في حفلة وداعيّة لشقيقتها المسافرة إلى أميركا، التي أصرّت صديقاتها من الراهبات على أن يودّعنها على طريقتهنّ. يا للغباء، تذكّرت جاكوب الذي قرّفني مسحوقات الشعر والأدب الأميركيّ اليافع.

كم مرّة بعد سأولد في هذه الكنيسة؟ فقد وُلدت هنا مرّتين حتّى الآن: مرّة يوم تعمّدت بالمسيح ومرّة يوم تعمّدت بماري.

كانت صداقةٌ ما قد نمت بيني وبين الأب بولس حداد منذ اعتناقي المسيحيّة على يديه، وصرت أزوره باستمرار. وفي إحدى تلك الزيارات، كانت هناك... فراشة ملوّنة تشعّ بين الأخوات المتجمّعات في الباحة. شيء ما فيها جذبني، كقوّة مغناطيسيّة لم أستطع منها فكاكاً. هي آلونا اللبنانيّة، هاتان عيناها. تقدّمت منها متذرّعاً بالسؤال عن الأب بولس. أجابتني بابتسامةٍ بدأ معها كلّ شيء. قادتني يومها إلى آخر الرواق، ومن بعده إلى آخر العالم.

***

كانت ذكريات لقائي الأوّل بها تتداعى في رأسي ونحن نتقدّم نحو القاعة التي سيُقام فيها الحفل. خطر لي أن أسألها عن سبب تصميم النوافذ مثلّثةً على هذا النحو، فقد استمتعت بالضوء الرماديّ المتساقط من الأشكال الهندسيّة، لكنّي تراجعت. فلتكن مثلّثة، لم أجد ضيراً في ذلك. تركت بلاداً مغلقة بلا أيّ نوافذ، فلماذا أنزعج من مهندس حاول الإبداع؟ إنّه كائن بمزاج رائق بلا شك.

اقترحَت أن نعرّج على الأب بولس في غرفته للتحيّة قبل دخول الحفل، فوافقتها. في السابعة والربع وصلنا إلى الغرفة التي كنت فيها بطلاً في الماضي القريب. هنا تعمّدت. في هذه الغرفة حيث يصل السقف إلى السماء في نهايته. سماءٌ مفتوحة، متسامحة، لا تكنّ حقداً واضحاً لليهود. تذكّرت الجملة الشهيرة على الجدار الأخير في أوشفيتز: «إذا كان الله موجوداً فعليه أن يعتذر».

وها هو يعتذر. لقد صدقت النبوءة: أنا المسيح الجديد. لقد جاء الله في صورة المسيح ليجسّد آلام الإنسان، وأنا أجسّد آلام اليهود بعد الحرب. أنا ضحيّة، ولا يلمني أحد، أنا كيسوع الإنسان ابن الإنسان. هكذا هي اللعبة، لعبة الله. من اعتذار إلى آخر، سلسلة من العذابات تتّصل بالتاريخ، وتصله بحيواتنا المباشرة. يجب أن يبذل الربّ من دمه كي يسوّغ العالم السيلان الأبدي. لم يصلبني الأب بولس في الكنيسة، يوم أتوه بي لأولد على يديه من جديد، بل دفع رأسي برفق إلى ماء مقدّس، وردّدت وراءه بعض العبارات الأليفة. لقد كنت بارعاً بحقّ، ومثّلت على الجميع دور المسيح. لقد أصبحت إلهاً.

telegram @ktabpdf

25 كانون الأوّل 2005

«الآن، يا ربّي، إنّهما وحيدان...
قلبي والبحر.»

أنتونيو ماشادو

في باريس تمطر فراشات وتنزل النساء اللواتي في لوحات موديغلياني من السماء بخفّةٍ وشقاء. أثناء العاصفة يجب عليك أن تمشي وتشدّ ظلّك بقوّة، عليك أن تسحبه خلفك، أحياناً بضراوة، وأن تحرص على العودة به إلى المأوى، كي يؤنس وحشتك. عليك أن تحيا خفيفاً وتموت كظلّك، الظلّ صديقٌ إلى الأبد. الظلّ سرير الآخرة وجميع الموتى ينامون فوق ظلالهم. لا توجد حياة بديلة حتّى للكائنات المركّبة، المشرّدون يموتون لأنّهم يصيرون ظلالاً لها أجساد، لا أجساداً لها ظلال. في نقاش مع صديقي الباريسيّ ماريو، اتفقنا على رهافة باريس وصلافتها. شربنا البيرة الفرنسيّة الرديئة على ضفاف السين، قرب الجسر الذي أحكموا فيه أقفالهم الغبيّة، وأخبرني عن يأسه من أنّ هذه الحياة هي الوحيدة المتاحة. كعازف انتهت صلاحيّة يديه قال إنّ الحيوات الأخرى ليست

لنا. عندما بدأ الكون قسموا الحيوات عشوائيّاً بيننا. لا أحد يعرف من بعثر أشكالنا ومواعيد موتنا على عجل، وجعلنا نخترع العمارة البديعة في أزقّة سان جيرمان المبتسمة، ونفسد كلّ شيء بمبنى مونبارناس المبصوق بصقاً من فم دميم. لا أحد يعرف شيئاً، وربما يكون أحد سرق أصابعه، استعارها ولا يمانع أن يردّها. خلته يتحدث عنّي لكنّي كنت ثملاً، ولا يمكننا التأكد من ذلك الآن. كنّا شرّيبين نتنافس في البيانو والكحول ونبذ العمارة الكولونياليّة، ولم يجمعنا إلّا شيء واحد. لطالما خفت من أن أصير مبنى لاحقاً. ولكن ماذا عساني أفعل. لن ألتقي بماريو لاحقاً كما حدث عصر ذلك اليوم في المترو. المترو يخطف الحيوات ويخلطها، بل يمضغها. بشر وأصوات ومظلّات ملوّنة وروائح طافحة على مقاعد تركها المستعجلون. الدنيا ليست صغيرة كما يقولون. الدنيا مترو عملاق. ولهذه الأسباب توزيع حيواتنا عادل كما لو أنّنا في مترو. وإن كنّا شخوصاً متحرّكة فذلك لا يعني أنّ حراكنا ليس على مقاعد غير مرئيّة. جالسون كأنّنا في مترو يقلّنا إلى الأبديّة بسرعة لن نكتشفها إلّا في النهاية. الولادة صعود إلى الحافلة والموت نزول في محطة. هكذا نسير إلى الأبديّة ونحدث صخباً بلا معنى، من دون أن نصل. ينبغي الاعتراف بلا ضجيج. لا يسعنا إلّا القبول بذلك. السجالات حول الصدفة تحيلنا إلى العدم. سنتحدّث عن العدم لاحقاً، عن صدفة الحيّ العتيق حيث التقينا أوّل مرّة. يومذاك كنت أعزف في الماريه، بدعوةٍ من إرساليّة دينيّة، وأحبّ ماريو أن يتعرّف إليّ، لأنّه يحبّ الشرقيّين عموماً، واللبنانيّين خصوصاً، ويحبّ أن يعرف عنهم.

التقينا عدّة مرّات لاحقاً، تحدّثنا طويلاً عن الفوارق بين فاغنر وموزار وباخ والآخرين، ولكنّي لم أرَ ماريو واثقاً في حياته مثلما رأيته

في ذلك اليوم، في الماريه، حين ابتسم ملء وجهه، شاعراً بتفوّق واضح عليّ وهو يشير إلى المرأة الفاتنة إلى جانبه: «زوجتي ليا».

***

لا أعرف كيف جرّتني إلى المنتصف. كان البهو كبيراً في ذلك النادي الليلي البيروتي، والسكارى يتمايلون على أطراف كراسيهم ويصوّبون كؤوسهم نحوي. أصبحت عند الثانية فجراً راقصاً لا يتوقّف. رجل يرقص بخفّة تحت تأثير الكحول. أحبّ الرقص وأشعر بالرضى عندما أرى الآخرين يرقصون. لا أسمّيه فرحاً بل هو نوع من الاكتفاء بالمشهد. لا أنجرّ عادةً إلى مواقف مشابهة. إحدى ميزاتي القليلة أنّي لا أنجرف. تعلّمت السباحة في النهر لا في البحر. ولا أذكر كيف حدث ذلك لكنّه حدث في فيستولا وأخبروني إيّاه في كبري. القصد أنّ الذين يسبحون بلا ملح يعتادون مجابهة التيّارات العنيفة. يتّكلون على أنفسهم أكثر ممّا يتّكلون على العوامل المحيطة. قد يخذلك العالم في لحظة، قد ينتهي الملح. السباحة في ماء النهر أصعب، هذا شائع. وأعتقد أنّه صحيح. عودي قاسٍ لأنّي خرجت من النهر منتصراً بعد كلّ معركة، حتّى في وارسو لم أنجرف. عودي قاسٍ لأنّي لا أنجرف وليس العكس. لم أغرق في امرأة أو تبتلعني جماعة أو تأسرني فكرة. اكتشفت خديعة الاتّجاهات باكراً ولكن ما جدوى هذا. لم نتحدّث أنا وليا عن ماريو، زوجها الذي عرّفني إليها، بل رقصنا. ترنّحت أكثر من مرّة ولكنّي لم أسقط. لا أقول إنّها كانت غلطة فإعلان الهزيمة لا يجدي بعد أن تقع الواقعة. إعلان الهزائم لا يزيد من وقعها ولا يخفّفه. الهزيمة هزيمة. ليس من وقعٍ أكبر من هذا ولا من آخر أصغر منه. إنّها كلمة على مقاس المعنى ولا يليق بها شرح أو ينقص منها سهو في تفسيرها. ولقد اختارتني من بين الجميع. اختارتني لتهزمني. وأكثر ما يؤلمني

أنّي لا أذكر كيف حدث ذلك. كيف أنّها اختارتني ولم أنتبه إلّا وأنا بين يديها. رقصت وبهرت الجميع وهي فعلت كلّ شيء لتجلعني أبدو باهراً، لكي أصدّق أنّي هذا الذي انزلق وليس أحداً غيري. لم يعد الشكّ قائماً. منذ البداية أعلنت تفوّقها. سندور في هذا البهو ولا أحد سيعرف إلى أين سنذهب. خفتت أضواء الحانة وارتفع صوت الموسيقى. لقد بدأ العرض.

غرزت أصابعها في شعري وأعادت رأسها إلى الخلف. شعري كثيف وطويل، رغم ذلك حفرت ليدها طريقاً هناك. صفّقت لها رموشي بخجل طفوليّ وبدأت أشعر بأنّي أصير طريّاً. علّقت ساعدها جسراً بين وجهي وجسدها المنحني بالمقلوب. تقوّس صدرها وأيقنت أنّها ستطلق منه شيئاً نحوي. ربّما رائحة تفوح بقوّة من خلف قميصها الأسود المشقوق من المنتصف. مفتوح على شكل مثلّث، ومطرّز بحرفة من المعصم إلى الإبطين، ما يبرز أجزاءً من لحمها الذي يميل لونه إلى القمحيّ. فكّرت أنّها ربّما تطلق بجعة سوداء أيضاً. وبين الصوت والصوت واكب ساعدها الموسيقى بل تفوّق على الإيقاع حتّى صار الأخير يدبدب خلفها. في تلك اللحظة، عندما ثبّتتني، رأيت عنقها بلا نقصان، لامعاً ومتعرّقاً، وكان هذا كلّه يحدث رغماً عنّي. قبل أن أقع في الفخّ أعادت رأسها إلى عنقي وشدّت خصرها على يدي، فوددت أن أشعل به حريقاً. وصرنا ندور كأنّنا نعلن انتهاء العالم. هكذا يرقص الناس. يفقدون الانتماء إلى الكوكب، تدور محرّكات خيالاتهم وتسبقهم إلى المجاز. مجازاً يُقال يطيرون من الفرح. كلام آخر بلا مجهود للتعبير عن نسبة الكحول تحت الجلد. كنّا ندور بالأيادي والخصرين. هربت أنفاسي منّي ولكنّي لم أسقط. مرّت من تحت كتفي، ببطء، كانت راقصة جيّدة بلا شكّ، ولكنّها الكحول. استدرت باسماً كاذباً كعادتي. نالت الحركة استحسان

الحاضرين فراحوا يحسدونني. خطر لي أن أقضمها وأقضمهم. إنّها لا تتوقّف وكان عليّ أن أفهم اللعبة، هذا مرتّب سلفاً. كأنّنا مررنا بهذه الرقصة في حياة سابقة والآن نعيد تمثيل المشهد. قالت لي شدّ على خصري ففوجئت. قالت أشياء كثيرة نقّذتها مغمض العينين أحياناً، وأحياناً مغمض اليدين. شددت فتمسّكت بي بكلتا يديها حتّى شعرت بأنّ أصابعها وصلت إلى شهوتي. من فرط سعادتي أردت أن أهرب. رفضَت السكرى ونامت على ساعدي حتّى ذاب ظهرها المبلّل بالعرق في وجهي. لحسن حظي انتهت الأغنية ولسوء حظّي عانقتني في النهاية وقذفت في وجهي ابتسامة ماكرة. سدّدت إليّ ضربة قاضية.

فعلَت ذلك بعدما خطّطت له على عجل. أنا أعرف زوجها وهي لا تعرفني جيّداً ورغم ذلك خطّطت للإيقاع بي. وها أنا الذي أدّعي الرصانة ذهبت إليها بعينين زائغتين وفم نسيتُه مفتوحاً. لا أجد دنيئاً أكثر منّي. أردت ذلك بشدّة ولم تمنعني أخلاقي عن الغوص في تينك العينين الواسعتين اللتين أعجبتا بي. لن يوقفني شيء الآن. من كان يقول إنّ الدنيا صغيرة إلى هذا الحدّ: أن أتعرّف إلى ماريو في الماريه. أن تكون ليا زوجته. وأن تقرّر تلك الزوجة الاستعانة بصديق زوجها، اللبنانيّ الوحيد الذي تعرفه، في رحلة البحث عن نور، ابنة أختها التي هربت ذات يوم إلى لبنان مع لبنانيّ وانقطعت أخبارها. ثمّ أن تتحوّل رحلة البحث عن الوقائع تلك إلى مغامرة عاطفيّة جامحة بيني وبين زوجة صديقي. مكتبة أحمد

في البداية كان اللحن شجيّاً، يتضاءل بالتدريج، كأنّه يعلن نهايتي. عرفت أنّها ستجرّني. وبعدما عانقتني، في نهاية السهرة، وجدتها تسألني عن نور بدلاً من أن أسألها أنا عن ماريو.

***

جاءت ليا من أجل نور إذاً، وقد استغرق منّي الأمر وقتاً لأفهم أنّ ليا ليست سوى خالة نور، أي آخر خيط يربطها بإرثها اليهوديّ. شعرت ليا بالذنب بعد وفاة والدتها في أحداث 11 أيلول، لأنّ الجدّة التي احترقت في أحد المبنيين كانت تحلم برؤية حفيدتها المفقودة الأثر، هكذا، جاءت إلى بيروت تحاول اقتفاء أثر ابنة أختها، نور.

وعلى هذا الأساس، لمساعدتها في البحث عن نور، التقينا مجدّداً في اليوم التالي، في نفس المكان وجلسنا إلى ذات الطاولة، بأجواء جديدة ومعطيات جديدة أيضاً. بات سبب الزيارة مفهوماً. جلسنا ندخّن، بين مجموعة من أصدقائي صودف أنّهم في الحانة ذاتها، عرّفتها إليهم بناءً على طلبها.

في تلك الليلة كانت ليا أجمل منّي رغم أنّها أكبر منّي. جدّلت شعرها القصير، وتماسك كحلها فوق جفنها كأنّها طلته برصاص مضيء. طلبت كأس ويسكي مع ثلجتين، وسلّمت على الجالسين بلغة فرنسيّة أنيقة كأنّها تعرفهم منذ وقت طويل. لم تُبدِ أيّ انفعالات. بالنسبة للجالسين بدوت لها عابراً بالفعل، عابراً تبادلت معه قبلاً ومداعبة رخيصة، بينما كنت أعرف أنّ هذا ليس هو الواقع وأنّي لا أضخّم الأمور. عندما همست «نور» في أذنيّ ونحن نرقص، شعرت أنّها اصطادتني. نسيت وجود ماريو من الأساس. رغم ذلك شعرت بفائض من الدفء وأنا أحدّق فيها، كأنّي قعدت في مدفأة. تحسّست أطراف الكرسيّ ولم أجد ما يبعث على الشكّ. إنّه وهجها وأنا لا أضخّم الأمور. لها وهج لا يفسّره شيء إلّا الشعور به، حتّى لو جاء دوستويفسكي نفسه للوصف لما أبدع أكثر. كانت درجة الحرارة سبع درجات تقريباً في الخارج، أمّا في الحانة، فبلا شك أدّت الزحمة دوراً في رفع منسوبها. ولكنّها زحمة شكليّة، إذ تنامى إلى مسمعي بوضوح، صوت فرانك سيناترا وهو يردّد بسذاجة: «Everybody loves somebody».

أغنية بكلمات تافهة ولكنّ لحنها جيّد. لفتتني ملابس الأصدقاء الذين بدوا في احتفال. دلال وضعت على رأسها قبّعة صوفيّة تعلوها كومة إضافيّة من الصوف، لا سبب لوجودها، وتدلّى على صدرها عقد من اللؤلؤ الزائف، ولكنّه يلمع إذا وصل إليه الضوء من بعيد. أمّا طوني، فكعادته، بدا مبتهجاً بالجماعة، ولم يقلع عن العادة التي لم أفهمها في حياتي. كان يلعب بساعته، فيبرمها حول معصمه على نحوٍ يبعث على التوتّر. ولكنّ الجميع اعتادوا عليه، وخاصةً صديقته الأوكرانيّة الجديدة. لم تحبّني صديقته في البداية لأنّي نشأت في بولندا، تقول إنّي لا أشبه البولنديّين. طبعاً لا أشبههم فشعري فاحم وهذا يريح ساندرينا. ترتاح لي لأنّي لبنانيّ أكثر من كوني بولنديّاً، لا أشبه البولنديّين في شيء، كتفاي عريضتان، وأبدو بالنسبة إليها يونانيّاً، لأنّ طول وجهي يفوق عرضه. لديها تعريفات خاصة في أشكال الناس وبلدانهم، أو هي انزلقت إلى ذلك أثناء شرحها لتبرّر لي حقدها التاريخيّ على البولنديّين.

في منتصف الليل بتوقيت بيروت، تلقت ساندرينا اتصالاً هاتفيّاً من أوكرانيا. تمتمت كلمات لم يفهمها أحد، حتّى طوني الذي صار يفهم شيئاً من لغتها أخيراً. حاولت بدوري أن أقارنها بالبولنديّة لكنّ ذلك كان مستحيلاً. بدت ساخطة، وصرخت في الهاتف، أشاحت يدها كما لو أنّها في عراك. تعاركت مع الهاتف، وكأنّها رأت أشخاصاً يخرجون منه. تذرّعت باللغات لأشتهي شفتيها. راقبت شفتيها. نزق؟ الجميع يفعل ذلك. ليس بيننا حلّاج واحد. جميعنا سكارى وجميعنا يعرف من أين أتى طوني بها. فكّرت للحظة إن كان الجميع يفكّر هكذا، ساندرينا كانت تعمل في ملهىً ليلي، وطوني يقول إنّه أحبّها. لا يصدّقه أحد إلّاي فلماذا أتلهّى بالأخلاق لضبط النزق. أنا أصدّقه بحقّ ولا أسايره في ذلك، أخلاقي ليست موضع نقاش. وإن

قلت في سرّي شفتا ساندرينا مطّاط حارّ فأنا لا أطعنه هكذا. الأخلاق ليست مقصلة تحاصر المخيّلة. توقّفت عن تحليل الأخلاق الذي لم يكن في الواقع إلّا هرباً من الضجيج الذي أثاره الجميع ليفهم ماذا حدث. اتكأت كما الآخرون على ملامح الشقراء. أن تضع صبيّة يدها على فمها وتشهق، يعني أنّ شيئاً ما غير طيّب يحدث. شيء خطير يحدث. بعد دقيقة تقريباً، من الانفعالات العصبيّة، فهمنا من طوني أنّ شقيقها دخل السجن، بعدما طعن مهاجراً تونسيّاً، وعلى الأرجح قتله. أحرج طوني لأنّ صديقنا ومجالسنا كريم تونسي، إلّا أنّه كان إحراجاً عابراً. «محلولة»، قال جمال. ماذا يفعل تونسيّ أصلاً في أوكرانيا، قلت في نفسي، وسخرت من الأمر برمّته. سخرت من نفسي فماذا كنت أفعل أنا في بولندا أو ماذا أفعل في لبنان حتّى؟ بالنسبة إلينا، هذا خبر لا يفسد الجلسة، بل يفسدها على طوني وحده.

عليه أن يقلّ صديقته إلى المنزل الآن، وهذه هي الكارثة.

رفعوا أصواتهم وتزاحموا على توصيل ساندرينا. تزاحموا على أكله وأكل صديقته بحضوره وموافقة منه، ولم يكن ليرفض أيّ شيء في تلك الليلة. تغيّر لونه وشعر بإحراج مفهوم. طوني لا يعرف الخداع، صحيح أنّه يهتمّ بشكله أكثر من الجميع، لكنّه لا يهتمّ بصورته كي يخفي خلفها شيئاً آخر. يهتمّ بهذه الصورة لأنّها كلّ ما يملك. طوني مجرّد صورة، والآن عندما أتذكّره لا يبدو لي إلّا حائطاً عريضاً، أحياناً أزرق وأحياناً أسود داكناً، لكن دائماً لا شيء خلفه، مسدود تماماً ومسقوف بصلابة. طوني حائط جميل، وجبان لأنّه حائط، أي إنّه قد يتداعى بلحظة أمام الجميع.

كان بإمكانهما أن يسهرا ويشربا المزيد من الكؤوس، عودتهما إلى المنزل لن تخرج الشقيق من السجن. كان بإمكانهما أن يعتبرا الاتصال كذبة، وأنّ المتصل شبح، ثمّ يتأكّدا في اليوم التالي من

حصول الأمر. ولكن في المصائب يميل البشر إلى التصديق لا إلى التكذيب. وأقول البشر عموماً لا الأوكرانيّون. ذلك لأنّي تربّيت على احتقار الأوكرانيّين وهذا يخجلني حتّى أثناء نومي، أعتقد أنّ خجلي أثناء نومي نابع من هنا.

في أيّ حال تذرّعت بالحادثة لكي ننسحب أنا وليا. لا داعي لأن تتعرّف إلى اللبنانيّين وترّهاتهم، لدينا حسابات يجب أن نصفّيها. ولكنّي لا أملك سيّارة، يربكني المقود. لا أقوى على الصعود خلفه. بالنسبة إليّ، ركوب السيّارة أشبه بالجنس مع الآلة، ويمكن تعليل هذه النظريّة بوضعيّة جلوس السائق، وبالمصطلح العربيّ: ركوب. أبرّر خوفي باختراع الحجج التي لا يقتنع بها أحد غيري. وما المانع إن كان ركوب السيّارة من صنوف الجنس. هل هذا وحشيّ؟ أنا جبان وعلى الجميع أن يحترموا الجبن الذي يتلبّسني: لقد اكتسبته بالقوّة. في لحظة، نهض أكثر من شخص لا تدلّ أشكالهم على أنّهم يملكون سيّارات عارضين علينا خدماتهم. ولكوني أرتاب أكثر ممّا أتنفّس، شعرت بأنّهم يريدون ليا كما أردنا جميعاً ساندرينا. تحوّلتُ إلى طوني. فجأة شعرت بأنّ ليا جاءت لأجلي وأنّ عليّ حراستها. لكنّ ليا جاءت من أجل نور، وكانت قد حسمت الموقف. ما إن انتهيت من أفكاري الساذجة، حتّى أخبرتني أنّ التاكسي الذي طلبَته وصل، وأنّه سيقلّنا إلى الفندق.

***

بالكاد قفز الجنديّ من خلف الحواجز الحديديّة. ظننّا أنّه كمين لا نقطة تفتيش. كمين للجميع، لطريدة منتصف الليل، لأيّ عابر على تلك الطريق المظلمة. كمين لا نقطة تفتيش. الضوء شحيح، وهذا وصف كثير عليه، فقد كان أقلّ من ذلك، ولا يظهر خلفه إلّا شريط رماديّ

شائك وطويل، مثل الذي كان يضعه الجيش الإنكليزيّ أثناء حصاره الإيرلنديّين. لم تنتَبْني رغبة في أن أفجّر نفسي بصراحة. شعرت بالحذر وحسب. لمزيد من الصراحة كان خوفاً. نظر إلينا الجنديّ ودقّق في وجوهنا، بعدما اشتمّ رائحة الكحول تنبعث من جون كولتراين. صوّب «الأنتريك» إلى المسجّل وتفحّصه كأنّه سينفجر. خطر لي أن أسأله عن رأيه بكولتراين، ولكنّه باغت سائق التاكسي بسؤال ذكيّ: «إلى أين؟» تنبّهت فعلاً أنّي لم أكن أعرف الإجابة. لقد اختارت ليا الوجهة، وأنا مستمتع بكلّ شيء حولنا، صفيق الهواء، انعدام السيّارات الأخرى التي هربت من العاصفة، والأهمّ من هذا كلّه، الضباب الخفيف الذي يذكّرني بحديقة واجنكي في وارسو. أيقظني الجنديّ: «إلى أين؟» أتى الحلّ سريعاً من السيّدة الأنيقة التي إلى جانبي: «أشرفيّة»، بلكنة فرنسيّة مثيرة طبعاً. أردفت ذلك بابتسامة فتّاكة. هززت كتفيّ ورفعت حاجبيّ، مردّداً الأشرفيّة. قطّب حاجبيه مستغرباً بدوره، وعاود النظر إلينا، أراد أن يلقي علينا كلاماً ولكنّه لم يستطع أن يجمعه. قدّرنا أنّ الموسيقى لم تعجبه، لكنّ ذلك لم يكن سبباً كافياً ليغضب. في الواقع لم تكن ملامحه غاضبة تماماً، كان يريد أن يفتعل أزمة لكنّه لم يجد سبباً لها، بعدما أعاد أوراق السيّارة التي لا تشوبها شائبة إلى السائق، وخاصّة بعدما رأى جواز سفر ليا الأميركيّ، وجواز سفري البولنديّ. أصبحت فجأة رجلاً أبيض بالنسبة إليه، أصبحت أنا المتفوّق الآن ويمكنني أن أصرخ عليه، وأتّصل بالسفارة. من حقّي الآن أن أعاقبه على أسئلته السخيفة، فأنا أوروبيّ، وإن لم يكن شعري أشقر، فإنّ عينيّ زرقاوان. صحّح غلطته وطلب منّا الرحيل بتهذيب. فشل كمينه. قطعنا جسر سليم سلام، وأخذنا النفق المؤدّي إلى برج الغزال. انتظرتنا هناك إشارة سير مزعجة. فجأة استعادت المبادرة. رفعت ساعدها، ووضعت راحة يدي تحت إبطها. ما زلت أذكر تلك

الحرارة، المقرونة برطوبة العرق اللزجة. في المصعد رفعت ساعدها، كأنّها تبدي موافقتها على ما حصل في السيّارة. وكان وجهها خالياً من أيّ تعابير، محايداً تماماً، لم تكن غاضبة ولا فرحة. لا يمكنني الجزم بأنّها كانت تشعر بالإثارة وقطعاً لم تكن باردة. كانت تبدي موافقتها على استكمال اللعبة.

في غرفة النزل، الذي يقع بين الأشرفيّة ورأس النبع، لم أرَ شيئاً سوى انعكاس الحائط في المرآة المواجهة. صارا حائطين ومعي أنا ثلاثة. لقد خافت منّي فعلاً، واختبأت من خوفها تحت ساعدي. بادلتني اللعب. نمنا بعد مداعبة لرفع العتب، بلا جنس ولا من يحزنون. واستيقظنا قبل سطوع الشمس بقليل، لتنطلق جولة جديدة من الألعاب المكلفة.

«الله أكبر الله أكبر...»

إنّه أذان الفجر في بيروت. كانت ليا تعشق أن نفعلها فجراً.

***

أمضينا أسبوعاً بين الفندق والمدينة، نسهر في الحانات ونعود قبل الأذان بقليل. وكان أسبوعاً رتيباً، تجوّلنا فيه بين المعالم السياحيّة السخيفة، غير أنّها لم تكن تحمل أيّ كاميرا. كانت تحمل سؤالاً واحداً، أو طلباً واحداً فقط: «حدّثني عن نور». تقذفه في مناسبة أو بغيرها، وأتنصّل منه بصعوبة دائماً. لم أرد أن يفسد شيئاً علاقتي المحمومة حسّيّاً بليا، لقد أردتها أكثر من أيّ شيء.

في الليلة الثامنة، وكان الليل قد شارف على الانتهاء، كانت حاسمة. نظرت إليّ وقالت بصرامة:

– أعطيتك ما تريد، والآن حان دوري. يجب أن تأخذني إلى نور.

– لا يمكنني ذلك. ولم أكن أريد شيئاً أصلاً.

– جوزيف، منذ اللحظة الأولى، حين رقصنا في ذلك المقهى المزعج، أعلمتك بسبب قدومي. صحيح أنّنا انفصلنا ماريو وأنا، لكنّي لم أخطّط للإيقاع بك، كلّ ذلك حصل صدفة. لقد أتيت إلى هنا بحثاً عن نور، وكنتَ أنتَ طرف الخيط الوحيد، لم أكن أعرف أنّك طابة الصوف كلّها.

– لم يعد بإمكانك أن تجدي نور الآن.

– ولكنّك قلت لي إنّك أعطيت ابنتها دروساً في البيانو. هل تعلم أنّ جدّتها كانت تحبّ البيانو قبل أن تقضي في أحداث 11 أيلول؟ هل تعلم أنّي هنا لأنّ وصيّة أمّي جاثمة على صدري كالإسمنت؟ نور آخر العائلة.

– نور انتحرت.

حلّ صمت طويل، ثمّ انطلق أذان الفجر في بيروت.

13 نيسان 1973

«المزعجُ في اليأس أنّه بديهيّ ومُوثَّق وذو أسباب وجيهة: إنّه ريبورتاج. والآن أمعِنوا النظر في الأمل. تأمّلُوا سخاءهُ في الغشّ، رسوخه في التدجيل، رفضه للأحداث: إنّه تيه وخيال. وفي هذا التيه تكمن الحياة ومن هذا الخيال تتغذّى.»

إميل سيوران

خوينيتزه[1] قرية الطفولة. كنّا نذهب إلى هناك لزيارة رووث، ابن عمّ والدي، وصديق طفولته أيضاً. لطالما خلت أبي بلا أصدقاء. حتّى إنّي عندما أحاول إعادته بالقوّة إلى طفولته، يبدو لي رجلاً في الثلاثين، بين مجموعة أطفال. أنا الآن أكبر من أبي الذي أحرقوه في المعتقل قبل أن يشيب. لقد كبرت أكثر منه، وظلّ في رأسي، طفلاً في الثلاثين. رووث صديقه الوحيد، الذي في مثل سنّه، ظلّ في حساباتي مزحة. طفلٌ كبير آخر. في غودِتز، أخبرني رووث قصّة لا تصلح روايتها لخارجٍ من معسكر اعتقال، قصّة للكبار فقط، لشخص غيري قطعاً، لكنّه كان

[1] قرية في وسط بولندا.

ينتظر أحداً لكي يلقيها عليه. حينذاك أيقنت أنّه ليس طفلاً وأعدت النظر بطفولة أبي. لا أدري فعلاً، الآن وأنا في الخمسين، من فينا والد الآخر. كان رجلاً بأذنين طويلتين وصدر شاحب، يتأتئ أكثر ممّا يتحدّث، ولديه وقت وافر للمواساة. كان ودوداً، وسلّم عليّ بلطف، حينما استقبلني في أيّامه الأخيرة، تماماً كما في الأيام الخوالي. ذهبت باحثاً عن عمل. قدّم لي بيرة سيّئة، وحدّثني كصديق قديم. لعنّا الحرب معاً، ورفعنا الكؤوس، بصحّة أبي في وحشته.

بعد دقيقة صمت، راح يلوّح بإصبعين في الهواء، ويخرج من رئته حشرجة ناشزة، كأنّ قطاراً يئنّ في صدره. قال كلاماً باللهجة المحليّة، أظنّني فهمته، ولكنّه كان بلا معنى فعلاً. حشرجة، صوت قطار. قطّب حاجبيه السميكين وتذكّر بلا تذمّر: «كان لون العالم كئيباً والسماء صحراء رماديّة، رماديّةً تقريباً...».

ثمّ بدأ يسرد أشياء واضحة، كأنّه قرأها، وها هو يعيد توضيبها في فمه قبل أن يتلوها: «كانت إلى جانبي زوجتي وطفلنا الذي ألبسناه ثياباً ضيّقة وقبّعة فضفاضة. واحدة من تلك القبّعات الأليفة المزيّنة بزرٍّ عملاق».

حاول أن يشرح شكل القبّعة مبتسماً، فقمعته فوراً، لكي لا يضجرني إلى حدٍّ لا يمكنني احتماله. أعرف تلك القبّعة، وكان لديّ ثلاث منها، وقد رأيت نهراً خامداً منها في أوشفيتز، حيث كوّمها الجنود. رأيت في المعتقل أنهاراً من الشَعر المكوّم أيضاً. تحسّست شعري بينما راح يخبرني كيف كان وزوجته يتبادلان الطفل بلا توقيت محدّد ولكن بنسبة عادلة لكلّ منهما. بدأت العمليّة منذ اللحظة الأولى لمغادرة فستربورك. اتفقا على النسبة العادلة من دون إعلان الاتفاق. 36 ساعة تقريباً وهما يتبادلان الطفل الذي أكل أنفاسه. 36 ساعة بلا طعام غير الذي في خيال المرحَّلين ولا نقطة ماء واحدة

رغم الشتاء الكريم في الخارج. لأنّه كان يعرف أنّ مردود الكلام أقلّ بكثير من المجهود الذي سيبذله للنطق به، اكتفى رووث بالاستماع إلى احتكاك العربات بالسكك الحديديّة، وصراخ الأخيرة، كما لو أنّها تُسحق. أصدر حشرجته مجدّداً، ثمّ لوّح في الهواء بحركة الإصبعين العزيزة على قلبه، للتوكيد، وهزّ رأسه مخلصاً للتفاصيل. لا خلاص للسكك من زحف القطارات. إنّها طويلة وتبدو قويّة، وقد تنجو في أيّ لحظة وترمي القطار جانباً، لكنّ التفاصيل صلفة. بدت رحلة لا تنتهي بالنسبة إليه، وبالنسبة إليّ بدت قصّة. بدأت أشعر بالضجر، وفهم ذلك، فنهض عن كرسيّه وتمتم ببطء: «قلت لكايا: تزوّجي من بعدي. إذا لم أعد فتزوّجي من أجل الطفل، واحرصي على أن يكون أباً جيّداً. أحاول أن أقول كلاماً نافعاً، ولا شيء ينفع الآن إلّا الطفل.

فما كان عليها إلّا أن أجابتني: حبيبي، عليك أن تخرس الآن.

لم تسعفها ملامحها على استضافة استياء آخر. فمنذ اللحظة الأولى لمغادرة وستربورك، امتلأ وجهها بالاستياء أصلاً. بعد الساعات الطويلة وصلنا إلى خوف جديد. نزلنا على عجل، فازدحم بنا المكان. استدرنا جميعاً إلى اليسار، بعد إشارة من الجنديّ الذي صوّب سلاحه نحو الرجال. بدت الأمور أنّها ستكون أسهل هذه المرة. 3 دقائق سيراً فقط، وأصعدوا النساء إلى شاحنة ضخمة.

أخذت المرأة الطفل كي ينجو، وأخذت أراقب. كان بإمكاني أن أراهم بوضوح تام: وأخيراً ذاهبون بعيداً عن هذا كلّه.

عرفت أنّي سأموت موتاً سعيداً ولكنّي لم أكترث. وأنا أنظر إلى ابني، لمعت عيناي، وشعرت بالرضى عن جملتي الأخيرة في القطار. ستتزوّج من بعدي، ولكن لا يهمّ، كان ابني في منتصف الشاحنة المغادرة من هذا كلّه.

إلّا أنّه كان في منتصف الذين عرّاهم الجنود، بعد ساعتين، واستحالوا حطاماً داخل عنابر الغاز في أوشفيتز».

***

حدث ذلك خلال إقامتي في المعتقل ولم أكن شاهداً عليه. فاتتني أسماء الكثيرين، وحفظت وجوه الكثيرين. في الثلاثينيّات كانت الخيارات قليلة ولكنّها كافية لحياةٍ أرحب. أذكر السراويل المخمليّة والحقائب التي يلتهم صنعها وقتاً وشغفاً. تلك الجلود الباهتة كفصول مدننا وشتاء الأرياف البعيدة، كانت متشابهة، وكان التميّز يحتاج إلى أكثر من حقيبة يد، أكثر من سروال بفتحات واسعة أسفل القدمين، وسالفين كثيفين كالأشجار. الأشجار مياتم الغربان، الأشجار لا تنمو في الوجوه. رغم كلّ شيء كانت الحياة أرحب. أيّام المدرسة، السير الطويل، وشبابيك صفوفنا المرتفعة صعوداً إلى درجة ترغم الواقف خلفها على تبجيل النافذة. لا يحتاج الأمر إلى فلسفة. المارّة يجرّون خلفهم ظلالهم، ويستوحشون ضباب الثلج يتراكم على الرصيف، قرب متجر القبّعات. لقد أوصدَت النافذة، ثمّ أزيلت عام 1973، لتتحوّل المدرسة إلى مبنى شاهق سيّجوه بزجاج برّاق ودسّوا حدائد صلبة في المنتصف. أخبرت صديق أبي أنّي تزوّجت بلبنانيّة اسمها ماري، وبذلت مجهوداً خارقاً لكي أدلّه إلى موقع لبنان على خريطة العالم. فرح كثيراً عندما عرف أنّ ابني فادي صار عمره 10 سنوات، ولكنّه عاتبني بشدّة عندما عرف أنّي لم أتزوّج بيهوديّة، أقنعته بأنّ الحياة في بيروت، حيث توجد شواطئ وتلال بعضها قرب بعض، جميلة، وأنّ الناس لطفاء بحقّ. كان ذلك فقط قبل عامين من اندلاع الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

13 تشرين الأوّل 2005

«ستأخذنا الريح معها... ستأخذنا الريح.»

فروغ فرخزاد

انتهت السهرة كما تنتهي السهرات. سكارى يداعبون هواء المدينة، ويستغلّون خفّة الضوء المبكر. في الطريق صافحت بائع يانصيب أعرفه وآخذ منه كلّ مرّة ورقة دون أن أرى النتائج لاحقاً. إنّها الثامنة صباحاً، تأخّر الوقت لكنّه كان باكراً للبائع، ولذلك كان متحمّساً. أعرف أنّي سأخسر ولكنّي أسحب كي يبتسم الرجل لي. أدمنت هذا مع المتسوّلين الصغار أيضاً. أنتظر ابتسامتهم لأشعر بأنّي فعلت شيئاً في حياتي غير العزف البائس في المطعم الأرستقراطيّ. لطالما خشيت أن يعبس البائع في وجهي. لا أطيق أن أربح اليانصيب ولكن لا مانع لديّ أن أربحه. سحبت ورقة جديدة وعاهدت نفسي أن أرى النتائج هذه المرّة. قد أجرّب الثراء وأنتحر بدوري. قضيت الوقت في تفحّص وجوه المارّة، متسائلاً إن كان بينهم من عرف بقصّة السيّدة التي تهشّمت على رصيف السوق التجاريّ. تعبت إذ بدا لي أنّ جميعهم يعرفون، وينظرون إليّ بدورهم كي يتأكّدوا من ملامحي. خدعتهم، تظاهرت

بأنّي لا أعرف شيئاً. لن أندم، أستمدّ قوّتي من إيديت بياف وأغنيتها الشهيرة. ثبّتّ السمّاعات في أذنيّ كأنّي على متن طائرة، وانطلقت الموسيقى: نَوْحُ الحَمامْ. دندنت أغنية دنيا مسعود الجميلة مستمتعاً بالسمّاعات الجديدة. للحظة، خطر لي أن أعيد الأغنية مجدّداً، وهذا أمر لا أفعله إلّا نادراً. استدرت مزهوّاً لأستقلّ الحافلة رقم 4.

لا أصلح لأن أكون الكونت فرونسكي لكنّ نور يمكنها بلا شكّ أن تكون آنا كارنينا. الفرق فقط أنّ نور لم تجد قطاراً، فقذفت بنفسها إلى الأرض وسمعوا في الحيّ الراقي بفردان صراخاً قويّاً بسببها. ارتطمت بحتفها وهذا لا يفسد رقيّها. المبنى بدلاً من القطار. أعرف أنّ هذا قاسٍ. عظام سيّدة جميلة، بكامل رهافتها، تهطل من الشرفة، وتزعق خلال نزولها إلى الأبديّة. تسقط غير آبهة بالأطفال الذين في الشارع ولا بالكبار الذين سينتحرون لاحقاً. كانت مجرّد سيّدة تخلّت عن ملابسها الأنيقة، وغادر المعطف الأخير جسدها. سيّدة تصطدم بالزفت الحالك ويتبعها رداء أحمر بلا قصّة. رداء كنتُ أحضرته معي من باريس. سيّدة تنزل إلى الأبديّة ولا تصعد إليها. إنّها قوّة المنتحرين، يقلبون موازين الله.

في اليوم الذي تلى انتحارها بحثت بجدّيّة تامّة عن بقايا دمها. كانوا قد نظّفوا كلّ شيء. نظّفوا أيّامنا عن الرصيف. دم نور يحوي كريّات من دمي. اعتبرتها مسألة شخصيّة، وهذا ما لم تستطع ليا أن تصدّقه في الليلة الأخيرة لها في بيروت. لم ترضَ أن تصدّق أنّ دمي يجري في عروق نور، وأنا، كان مؤلماً لي أن أبحث عن دمي في الطريق ولا أجده. وبدلاً من السؤال عن وجهة الدم، مجدّداً، تخيّلت مشهد الارتطام. فكّرت في نور وهي تسقط. لا بدّ من أنّ الأمر حدث بلمح البصر. رأيته سابقاً في أفلام، لكنّ نور ليست بطلة سينما، هي بطلة الواقع. كان يجب أن أكون حاضراً وأن أحني رأسي احتراماً، وأصفّق.

وهنا بدأت جولة نقاش خاصّة في داخلي. لماذا تبادلت الدور مع الشرفة. الشرفة في مكانها، تتفرّج على المارة منذ بنائها، ولم تيأس. لمَ يئست نور ولم تكتفِ بالفرجة كشرفة مفتوحة على العالم؟ نور قفزت عنّي ولم تقفز عن الشرفة. لماذا تسلّقتني وانتحرت دون إذنٍ منّي؟ لو عرفتُ أنّها ستفعل ذلك... لا لن أقول إنّي كنت سأتراجع. لا أحد في العالم يتراجع بطيبة خاطر. الوراء مؤلم إلى حدٍّ لا يطاق. الجميع يُرغَم على التراجع. ووفقاً لهذا المقياس الواقعيّ، لا يمكن القول إنّي كنت سأتراجع عن مستقبلٍ لا أعرفه. حين ظهرت ليا لاحقاً، كنت بالنسبة إليها بديلاً من نور، وكانت بالنسبة إليّ كذلك، بديلة من ابنة شقيقتها. غير أنّ أحداً منّا لم يستطع تعويض الآخر عن نور. اختفت ليا بعدما تأكّدت من موت نور. لم تزر قبرها حتّى.

ما فعلناه كلانا كان تراجعاً عن الحاضر أكثر منه إذعاناً للمستقبل. والحال أنّ هذه العلاقة الشائكة بالزمن تربكني. كلّ شيء هو ماضٍ وهو حاضر أيضاً كما سيكون مستقبلاً. وفي هذه المساحة الضيّقة يدور الزمن. لمَ أبرّئ نفسي بسذاجة وأقول: «لو أعرف كنت تراجعت»؟ سيكون هذا كذباً مفضوحاً. كان من الأجدى أن أجد دمي المفقود. ثمّ إنّ الحقّ عليها هي. لماذا لم تتراجع في آخر لحظة بعدما خرّبت لها حياتها؟

في حياتي لم أشعر بأنّي محايد إلى هذه الدرجة. كان حياداً مقصوداً لأنّه لا يسعني تحمّل ذنوبٍ إضافيّة. ما ذنبي أنا إن أثارتها شهوة القفز عن الطابق الخامس، تلك الشهوة التي طحنت عظامها وسوّتها بالأرض؟ حاولت أن أكون محايداً قدر الإمكان. الحياد بين الحياة والموت يعني أن تكون شبحاً.

آخر شيء قالته لي ليا قبل رحيلها كان: «نور انتحرت نيابةً عنّي».

***

بعد رحيل ليا أصبحت ذاكرتي أكثر إصراراً. رحت أبحث عن آثار نور، كما لو أنّي أكمل ما أتت خالتها لتفعله، كأنّي أصبحت أنا المؤتمن على وصيّة جدّة نور. مشيت من وسط بيروت حيث عملت مؤقّتاً في الكونسرفتوار الوطنيّ، إلى فردان، بدلاً من أن آخذ الباص. وصلت بسرعة لم أتوقّعها. كانت درجة الحرارة منخفضة، سبع درجات تقريباً، فلم أتعرّق أو أضجر.

عفويّاً، أشعلت سيجارة، ورحت أتأمّل مدخل المبنى. أذكره جيداً، وخاصةً البوّابة العريضة التي صُمّمت من أجل قلعة لا مبنى. ما زلت لا أعرف كيف وصلت إلى سرير نور، فبوّابة مثل هذه لا يمكن أن تؤدّي إلى ذلك السرير، أو إلى أيّ سرير آخر. إنّها محصّنة، وتعطي انطباعاً بأنّها تؤدّي إلى غرفة ماري أنطوانيت في النهاية. لا بدّ من أنّي كنت أعبر حيوات غير مرئيّة، وسراديب في الزمن، للوصول إلى السرير. وقرّرت هي أن تعبر مثلي فجرّبت الطيران. كنت أتوقّع أن ينتحر جاري الناطور الذي طردوا أولاده من المدرسة الرسميّة لأنّ المدرسة نفسها أغلقت أبوابها. قد ينتحر مدمن الكوكايين، نجل الحرب اليتيم، أو الساعاتيّ الذي صار متجره متحفاً. قد أنتحر أنا لكن ليس نور. نور كانت تجرّب الطيران. عندما انتحرت، فعلت ذلك باسمي، نيابةً عنّي أنا، ولتعد ليا من حيث أتت.

أزحت شالاً جاثماً على عنقي، صودف أنّه من نور بالذات. شال كحليّ من باريس فيه خيوط حمراء دُسّت من صاحب ذوق عال. رحت أحدّق في مبنى السعادة – ودعكم من هذا الاسم الغبيّ –

حيث كانت تقطن، وحيث تعرّفت إليها فعلاً، لا في النورماندي الذي صار مجرّد صالون للعزف الرديء. النورماندي للعائلة، لليال، والزوج. منزل النورماندي كان صالوناً، منزلنا كان هنا في فردان، أنا وهي. المنزل الذي انتقلت إليه بعد طلاقها، والذي نمَت فيه علاقتنا وأثمرت قفزتها الأخيرة.

قال شرطيّ السير الذي قرب المبنى إنّ الحادثة قديمة. يعرفها طبعاً: نور ناجي الحاج. السيّدة التي معها المورانو، يقصد سيّارتها. جاءت سيّدة فرنسيّة تسأل عنها أيضاً، سيّدة محترمة أتت ومعها سائق. فوجئت بالأريحيّة التي يتحدّث بها. حاولت أن أستفهم أكثر، فأشرت إلى شرفة منزلها بيدي اليمنى، وسحبت علبة السجائر باليد الثانية. هزّ رأسه إيجاباً، بتأفّف ملحوظ، حتّى لساذج مثلي. بدأ يساوره الشكّ في أسئلتي. عرضت عليه سيجارة فأخذها فوراً وأشعل سيجارتي بولّاعته. وراح يحدّثني عن نور كلاماً بلا فحوى. طلب منّي أن أقترب منه أكثر، مومئاً بيده بثقة. بدونا صديقين قديمين. فكّرت أنّه سيخبرني الحقيقة، أي إن أحداً ما رماها من فوق. جهّزت نفسي للخبر، فإذا به يدلّني همساً إلى المرأب الذي كانت تركن فيه سيّارتها. كان عبارة عن محلّ صغير، في الزاروب الملاصق للمبنى، يُفتح بواسطة الريموت كونترول. هذا يبهر الشرطيّ. تظاهرت بأنّي لا أعرف المحلّ، رغم أني تبوّلت فيه مرّة. يومها كنت قد شربت كثيراً وأرادت نور أن تراني كيف أبول فلم أنتظر وصولنا إلى الشقّة. واضطُررت لأن أجاريه في قصّة الريموت كونترول، فقد أبدى الشرطي الريفيّ (من لكنته) اهتماماً لافتاً بها. خفض صوته لدرجة بالكاد بتّ أسمعه. اعتبره أمراً هاماً وحميميّاً: مرأب على الريموت كونترول. لا أدري إن كان ذلك عن غضب، أم سخرية، ولكن كاد لساني أن يزلّ. كدت أخبره أنّي سخرت من الريموت كونترول تلك التي يبجّلها حتّى

شبعت، فيما أفسدنا، بحديثنا الذي ألهاه عن عمله، حركة المرور. زادت حدّة الأبواق من كلّ حدب وصوب، ولحسن الحظّ لم ينتبه إلى شيء. أشاح بيده شاتماً فقره لأنّ نور كانت ثريّة. أغمضت عينيّ وكدت أرتجف. تذكّرت نور وهي تشتم ثراءها، تذكّرت نقاشاً حادّاً بيننا في هذا السياق بجونية، قبل أن يستعيد المخبول المبادرة:

– صحيح وأنت من وين بتعرفها؟

– أنا مدرّس اللغة الفرنسيّة.

كان ذلك كافياً لإسكاته دقيقتين بالضبط. خفّ السير فعاد ليتطفّل عليّ. لم تكن نور تدرس الفرنسيّة. لم تكن بحاجةٍ إلى ذلك. كانت تحبّ فرنسا إلى درجة الهوس. كان ممكناً أن أخبره نصف الحقيقة: أنا تافه يعزف على البيانو. ربّما ظننت أنّ ذلك سيثير ريبته، إنّه مصاب بفوبيا الأغنياء، فاخترعت قصّة اللغة على عجل. ربما كرهته فكذبت عليه عمداً. قصّة الفرنسيّة مضحكة فعلاً ولكنّه صدّقها بلا اعتراض. ذات مرّة قامت بيننا حرب لأنّي رفضت الذهاب معها إلى مرسيليا وحاولت إقناعها بالذهاب إلى براغ، ومن دوني طبعاً. بيد أنّ المخبول الذي يدخّن بجانبي لا علاقة له بذلك. إنّه رجل بلا عاطفة. حدّثني عن المرأب والسكربينة والريموت كونترول، ولولا أنّه ظنّ أنّي مدرّس اللغة الفرنسيّة، لأعلن اشتهاءه لها بلا حياء. أشبعني الشرطيّ بؤساً، وألقى بعض النكات غير المضحكة البتّة. ثمّ استدار فجأة وأطلق كلاماً نزل على صدري كالإسمنت. إنّه تافه ولن أغيّر رأيي فيه رغم اعترافي بطيبته. ولكنّه قال كلاماً قاتلاً، دون أن يكترث لما قد يعنيه ذلك لي. افترض أنّه لن يعني لي شيئاً لأنّه لا يعرفني. لم يعرفني ولن يعرفني في حياته، لكنّه ختم المحادثة القصيرة على النحو الآتي: «شرموطة، تركت زوجا كرمال واحد ممحون، الكلّ بيعرف القصّة يا زلمة».

لم أكترث يوماً لأحكام المجتمع. أعتقد أنّ هذا بات واضحاً. ولم أتألّم بسبب الصفة التي أطلقها عليّ، لا شيء من هذا. آلمني فقط أن يكون الناس يتحدّثون بهذه القصّة. لم يعد طيفي سرّاً جميلاً حملته نور معها. ليا جاءت وسألت وتأكّدت، والشرطيّ يعرف، وربما أخبر الجميع ما أخبرني إيّاه.

غادر الشرطيّ بعد انتهاء دوام عمله. لم يودّعني حتّى. أطفأت السيجارة ودستها بقوّة، كأنّي بتلك الحركة أعلن موافقتي على موتها. لم يكن هناك خيار آخر. في نهاية الأمر لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء. وكما تحصل هذه الأمور عادةً، دمعت عيناي أوّلاً، ثمّ بدأ وجهي يغرق في ملح كثير. وهكذا، قمت الآن بما عجزت عن القيام به عندما كانت ليا تباغتني بأسئلة ترفقها بنظرات متشكّكة لا تخلو من بعض الإدانة.

وأنا أكفكف دموعي، أعدت الشريط في رأسي من البداية: أيّام الطفولة الأولى بوارسو هرباً من الحرب الأهليّة اللبنانيّة. العودة إلى بيروت بعد نهاية الحرب، مدينة باردة لم يعد لي فيها أمّ. نور وجذورها اليهوديّة. ليا التي أتت تبحث عن نور، فأشعلت فيَّ رغبة عميقة في العودة إلى جذوري.

20 حزيران 1982

«حسنٌ جداً. هبنا فقط هذه اللحظة: وأقف أمام المرآة، في بدلة أبي الميت، منتظراً أيضاً، أن أموت.»

مكتبة أهد

بوكوفسكي

بالوناته الجميلة تصعد إلى الله ولا تصل. الغريب، في بيروت 1958[1]، كان يحملها كلّ صباح ويدور بها في شوارع المدينة، موزّعاً الابتسامات على من لا يرغبون بذلك. لطالما وددت أن أشتري جميع البالونات، وأطلق سراحها، غير أنّي كنت أجزم كلّ مرّة بأنّ مالك الحوراني، وهو لقبه، أمين عليها أكثر من الجميع. لا يسلّمها إلّا للأطفال، الذين يقدّرون معنى الأشياء قبل أن يحرّروها، فتصير كالمشرّدين، صاحبة حرّيّة مغمّسة بالكآبة. وبعدما عرفت لاحقاً، عن حوران البعيدة، التي جاء منها مالك، فهمت معنى أن يجول الواحد منّا في مدينة ناشئة آخر الخمسينيّات. حوران ريف سوريّ، واحد من الأرياف التي تعاني من الحقد على بورجوازية تنامت في بيروت أوّل القرن التاسع عشر.

[1] شهد ذلك العام اضطرابات في لبنان بين الناصريين الموالين للاتحاد السوفياتي والشمعونيين الموالين للولايات المتحدة الأميركية.

لكنّه، الغريب، تصالح مع الطرقات، بينما أنا مجرّد فارّ من ألبوم محترق على الجبهة الشرقيّة، والمكان يسع الجميع. لم أصافحه في حياتي، حتّى عندما اندلعت ثورة في ذلك العالم، وقتلوه برصاصة طائشة، انتقاماً من بشرته السمراء، وشاربيه الكثيفين، اللذين لم يعتدهما سكّان منطقة الأشرفيّة في بيروت. لقد كان غريباً، رغم أنّه يأتي كلّ يوم، ويبتسم للجميع حتّى للذين يعبسون ضدّه بلا مبرّر. لا أعرف الآن إن كان ذلك طيشاً، أو كان مقصوداً، كلّ ما أعرفه، أنّي في ذلك اليوم، للمرّة الثانية في بيروت، شعرت بعودة النازيّين. نصبوا حواجز على الطرقات، ودقّقوا في هويّات العابرين. كان تمريناً للآخرين، اللبنانيّين العاديّين، وبالنسبة إليّ، كان شبحاً يعود.

حاولت أن أتعرّف إلى مالك. لا أقول إنّي بذلت جهداً كافياً ولكنّي أجزم بأنّي حاولت. لم أشترِ منه بالوناً ولم أعرّفه إلى نفسي. اعتبرت أنّ الابتسامة التي كان يرميها في وجهي كافية لتكوين صداقة عابرة بيننا. فكّرت كثيراً في البداية، كم سيبدو ساذجاً إلقاء التحيّة عليه بالإنكليزيّة. سأبدو سائحاً، وقد بدوت للبنانيّين كذلك طوال فترة إقامتي في لبنان. وأن تكون سائحاً في بيروت، لا يعني أن تكون مستشرقاً بالمعنى المعرفيّ للكلمة، بل سيشعرك هذا بتفوّق مجّانيّ، يمكنك أن تصرفه بسخاء إذا كنت خبيثاً كما ينبغي. بالنسبة إليّ، لم يكن شعوراً مريحاً في أيّ حال. لا أدّعي القداسة هنا، ولكن، أن تكون مميّزاً على أساس عرقيّ، كان شيئاً فظيعاً. كان يذكّرني بالهياكل العظميّة السائحة في جحيم الحرب العالميّة الثانية، كان الذين ينبهرون بشعري الفاحم وعينيّ الزرقاوين يشعروننني باشمئزاز حاولت إخفاءه مراراً. والكارثة أنّهم كان يمتصّون هذا الاشمئزاز بودٍّ، لا لأنّهم يعرفون أوشفيتز، بل لأنّ جزءاً كبيراً منهم، سحقه الاستعمار، كما سحقنا الألمان.

الحادثة الوحيدة التي جمعتني بمالك هي موته في أحداث 58. صودف أن أكون شاهداً طوال حياتي على موت الآخرين. في الواقع هذا ما نفعله جميعنا: نصادق على موت الآخرين. نعلن موافقتنا عليه، بإيماءة من الرأس، لأنّ الأمر لم يحدث أمامنا. ولكنّي كنت حاضراً دائماً، وكان مستحيلاً أن أوافق على شيء بهذه القسوة يحدث أمامي، وأتحدّث هنا عن موت مالك. لكنّي، في الأصل، وافقت دائماً: في معتقل أوروبا البارد عندما كانوا يرمون المقعدين من شرفات الغيتو، أو في بيروت الشرقيّة، عندما انحرفت رصاصة كتائبيّ عن مسارها، وأصابت صدر مالك، في منتصف هضبة ساسين، ونام بين البالونات. أغمض عينيه أمامي، كنت واقفاً على الضفّة المقابلة من الطريق، ولم أفعل شيئاً لأجله. لم أذهب لأتلقّى الرصاصة بدلاً منه. إنّها رصاصتي بلا شكّ، إنّها لعنتي وقد أصابته. أنا الذي قتلته. سمعت أصواتاً مشوّشة، لم أستطع تفسير معناها بوضوح، لضحالة معرفتي بالعربيّة، كما أنّي كنت مصدوماً. الشيء الوحيد الذي استطعت تحديده هو وجوه الآخرين. لم يبدُ أنّ أحداً كان نادماً على حضوره. هناك الذين حاولوا التنصّل بالهروب من رصاصات أخرى، ولكنّهم لم يكترثوا للنائم في دمه على الأرض، وهناك الذين استجابوا لقلوبهم واقتربوا.

لقد مات. حين وصلت سيّارات الإسعاف، كانت يده قد أطلقت البالونات من دون أن ننتبه. ارتفعت إلى السماء، سبقت مالك إلى سريره الأخير، ولحقها تاركاً ابتسامة أخيرة في مكانٍ سيعرف الكثير من الحزن بعد عشرين عاماً. في ذلك الوقت سيكون مالك الحوراني نائماً في غيمته.

***

لساعتين بقيت أراقب القطط في الحديقة، ذات يوم هادئ في أواخر 1982. ثلاث قطط، أضخمها تلك التي في المقدّمة. تذكّرني بقطط كوديك الودودة في آخر بولندا. بلهجة اليديش[2]، الأقرب إلى قلبي، كوديك تُدعى «شتيتل». ولا أجد ترجمة لائقة للمفردة الأخيرة سوى أنّها وديعة. أستخدمها الآن لأنّها كانت دارجة قبل الحرب العالميّة الثانية. «شتيتل»، شبه قرية، أقلّ من ذلك بكثير. لا أصدّق أنّي أنا نفسي. القدمان نفساهما والوجه نفسه والقلب نفسه، الذي تمزّق في أوشفينشيم، ورمّمته بيروت، قبل أن تأكلها القطط. أنظر إلى شوارع سويسرا الشرق 1982 وأرى وارسو المتآكلة. كان يحلو للبنانيّين أن يسمّوا بلدهم هكذا: سويسرا الشرق. كان ذلك تافهاً إلى درجة منفّرة، وخاصةً بعد الحرب، حين أصبحت النوافذ تستجدي ساكناً واحداً يطلّ منها، والصدوع الهائلة في عيون المارّة لا تحيل الذاكرة إلّا إلى الحرب. أعرف هذا جيّداً، أعرف صوت القذائف، وبكاء المنساقين إلى الموت. بعد ثلاثين عاماً، تغيّر الموتى وحسب. أنا الوحيد الذي لم أتغيّر، لأنّ أحداً ما تغيّر بدلاً منّي. لا أحد ينجو بالصدفة والجميع ينجو بالصدفة. مات أحد ما، شغل مكاني في القطار الأخير، ولذلك جئت إلى بيروت.

***

كما مرّرت يدي، آخر يوم في وارسو، برفق المعترض الذي لا حول له ولا قوّة، على رسم مزعج لستالين احتلّ جدار المسرح الكبير، مرّرتها على ذات النحو، في اليوم الأخير ببيروت، على رسم مشابه طُبع على مدخل حديقة السيوفي في الأشرفيّة، لبشير الجميّل، يبدو فيه رافعاً

[2] اختصار لـ«يديش-تايتش»، وهي لهجة كان يتحدّث بها جزء من يهود أوروبا.

يده على طريقة الفوهرر، وقد حُفرت حول صورته، التي انتشرت في بيروت الشرقيّة بعد انتخابه رئيساً بالدبّابات على المحتربين طويلاً، صلبان معقوفة كثيرة. بدأت أشعر بضرورة العودة إلى وارسو والموت هناك، قرب الأصدقاء القدامى. في 20 أيّار/مايو 1982، ماتت ماري بالسرطان. زوجتي التي منحتني حفيدي الوحيد، وكلّ شيء. وبعدها بشهر، مات فادي على محور الماليّة بين بشارة الخوري والخندق الغميق. قتله الجيش الإسرائيليّ، وفيه أصدقاء قدامى. قتل الأصدقاء القدامى ابني الذي كان يدافع عن منزله. وكان قائد تلك الكتيبة، كما رأيت لاحقاً على شاشة التلفزيون الإسرائيلي، لودفيك، الرجل الذي جلس إلى جانبي في الحافلة التي أقلّتنا من وارسو إلى فلسطين، قبل ثلاثين عاماً بالضبط.

في 20 حزيران 1982، حزمت الحقائب. وضعت الصور في حقيبة جوزيف الصغير، حفيدي، ما بقي لي من حروب العالم، الذي اصطحبته معي إلى جذوره. ما زال لديّ جواز سفر مكتوب عليه: يوزيف. ما زالت لديّ ذاكرة ومنزل في وارسو.

تمّوز 2006

«لأجلها، كمثل شحّاذ يقصد ضفّة النهر
ويرمي بهزء قرشه الوحيد
لأجلها، ضاحكاً
قد أرمي حياتي كلّها.»

كاميلو سبارو

كانت الأضواء مسلّطة نحو الشاشة. أبيض وأصفر، وغبار سميك وطويل يتجمّع مصوّباً من خلفنا باتجاه اللقطات الترويجيّة للأفلام الجديدة. المقاعد حمراء ووثيرة، والجالسون لا يقيمون وزناً لمعنى الوقت. وكان بإمكان الداخل أن يسمع قرقعة أصواتهم بوضوح تامّ، قبل بثّ التحذير الأخير المتعلّق بإطفاء الهواتف وعدم نسخ الفيلم. على الدرج، رحّب بي قاطع التذاكر مجدّداً وتلعثم بلا سبب. أرشدني إلى مكاني، مشيراً إلى المقعد الأوّل على الطرف تماماً في الصف السادس. جلست وتذمّرت بلكنةٍ فرنسيّة ثقيلة من الذين يطلبون منّي المرور إلى مقاعدهم. شعرت بتنميل طفيف بعد كاحلي بقليل. وتأكّدت من قصر قامة الشخص الذي جلس أمامي. رجلٌ ستينيّ تسبح يده في شعر

صديقته الأجعد. ويشبهان، كلاهما، الرئيس الفرنسي فرنسوا هولاند، غير أنّ شعر الأخير مسرّح إلى آخره، وجاكيته متهدلة دائماً. مازحت نفسي، قلت ربّما يكون هذان والداه. كان ممتعاً أن أرى الصور التي على الحائط، وهي تتدلّى من خيوط معدنيّة محكمة. صورٌ مغلّفة بملصقات لامعة، تبرق خلفها وجوه القدامى. متروبوليس، كلوك وورك أورانج، وأمّي: إديت بياف. وفي صورة واحدة، رأيت محمد عبد الوهّاب مبتسماً ابتسامته الكئيبة التي تفترّ عنها شفتاه فقط لرفع العتب مع المشاهدين، صحبة أمّ كلثوم بحجابها الذي توصد رأسها به، بينما تفتح من حنجرتها نافذة. لطالما أخافتني أمّ كلثوم، لكنّ صورتها تلك صُمّمت على نحو ودود. وعن سوء نيّة في الغالب، أعتقد أنّهم وضعوا صورة عبد الحليم حافظ، ضاحكاً على غير عادته، تحتها تماماً، كي تبدو والدته، وحنجرتها أنجبت حنجرته. كنت أفكّر في هذه الأشياء عندما كنت صغيراً. حكايات النائمين في الإطارات على جدران الصالات، وطفرة الأضواء المثبّتة في السقف، مع إمكان التلاعب بكثافة الضوء. اكتشفت السينما متأخّراً. قبلها، كانت أمّي تصحبني إلى المسرح مثل جميع الأطفال الذين في سنّي. كنت أفرح حين يظهر الممثّلون على الخشبة، وأصفّق مع المصفّقين، متحمّساً كما لو أنّهم جاؤوا من أجلي أنا فقط. أراقب ملابسهم الرثّة ولا أفهم سبب صراخهم. في السينما لا يصفّق أحد إلّا في داخله، يستعمل الناس قلوبهم للتصفيق لا أيديهم. وبعد ربع ساعة تقريباً من الانتظار، أطفئت الأنوار. راحت الأسماء المكتوبة بأحرف لاتينيّة حمراء تمرّ على الشاشة وتنسحب منها ببطء: فيديريكو فيلليني، فيلم لفيديريكو فيلليني. برقت عيناي شغفاً. كانت قد وصلت متأخرة، وقفت مع صديقها إلى جانبي، وطالباني بأن أزيح قدمي قليلاً لكي يمرّا إلى المقعدين الشاغرين الملاصقين لمقعدي. لم أعر الأمر أيّ انتباه في

البداية وعبر صديقها إلى مقعده منتصراً. داست على قدمي، ثمّ اعتذرت بابتسامة. ابتسامة مارلين مونرو، في آخر الصور التي رأيتها قبل أن يبدأ العرض. ثمّ بدأ الفيلم: مطرٌ كثيف يهطل على كابيريا، مطر لا يتوقّف.

***

انتبهت فجأة أنّني أحبّ زينب. مرّ وقت طويل لكي أنتبه، لا لكي أحبّ. يبدو أنّه حدث منذ اللحظة الأولى لبدء «لا نوتي دي كابيريا»، وأنّي اكتشفته متأخّراً، تماماً كالنقص في جهاز المناعة. العوارض ذاتها والنتائج ذاتها، مع فوارق طفيفة في السياقات وأشكال الخواتم. تلهّيت بإنكارٍ ظلّ مجدياً حتّى اللحظة الحاسمة، وبكحول الواحدة فجراً. وهذا جزء من وظيفة الإنكار: التأجيل والكحول مرضان لا شفاء منهما، يعلم صاحبهما أنّهما يتسلّلان إلى داخله من جرح رفيع، لا يلبث أن يتّسع داخل الأوردة ويحفر عميقاً في طريقه إلى القلب. على الهامش هنا، وعلى سيرة الجروح، أذكر نصّاً مخيفاً قرأته للكاتب الإيطاليّ روبرتو سافيانو، عن كامورا، المافيا النابوليّة. غرس أحد قادتها ذات يوم سكّيناً حادّاً، مسنوناً بعناية، في جسد ضحيّته، وأضاف على جريمته بعض الفانتازيا، لكي يكون للسكّين معنى. أضاف إليها الفلفل الحار، لكي ينفلش الألم داخل الجسد ويتعاظم شيئاً فشيئاً. وهكذا هي العلاقات التي تنام وتستيقظ فجأة، فانتازيا. تغلغل الفلفل في جسدي ولم أفهم سبب الحروق. وكان الأمر يبهجني، ذلك الشعور الميتافزيقيّ بأنّي ضحيّة، ضحيّة مزاجيّة زينب، ولست متورّطاً هذه المرّة في شيء. أنا الضحيّة، ويروقني هذا المخرج المجّانيّ من غرفة الألم. صحيح أنّ العلاقات غرف لتربية الألم، والمكوث فيها لفترةٍ طويلة سيؤدّي بالساكنين إلى الاختناق، ما دام اختراع النوافذ ليس

بالأمر السهل إطلاقاً. ولكن صحيح أيضاً أنّ الشوارع تعجّ بالضواري ولا بدّ من الغرف للاحتماء من شرور الوحدة، فما العمل يا زينب سوى الوحدة. الوحدة على طريقة ألبير كامو: ما هي الوحدة سوى أن تكون محاطاً بكلّ هؤلاء الناس؟

***

يظنّ الكتّاب، حتّى الجيّدون منهم، أنّهم، بالكتابة عن علاقاتهم السابقة يقتلونها. يقتلون كلّ عناصر القصّة بتجريدها من التفاصيل الحميمة التي يخالونها أحياناً أبديّة. يضعون أجسادهم وأجساد حبيباتهم في متناول الجميع، يتخلّون عن الجانب الشخصيّ تمهيداً لارتكاب جريمة، ويحيلون الأمر إلى المجتمع. يجب الدفاع عن المجتمع ولكنّ الأخلاق فرديّة دائماً، أي فعل شخصيّ يموت عندما يتحوّل إلى جماعيّ. أسوأ سيّئات الكتابة أنّ القصص تصير للجميع ولا مفرّ من هذا. وقد يتنفّس الكتّاب طويلاً بزهوٍ إذا أنهوا جريمتهم. الكتابة عن أكتاف حبيباتهم وصدورهنّ وخصورهنّ وروائحهنّ إذا مُزجت بعرقٍ وشغف. ولكنّي كاتب سيّئ. أنا عازف بيانو سابق، أصابعه... للجرح العميق. كلّ الظروف كانت مؤاتية لكي لا تحبّني زينب. تركت أذنيها للمجتمع الذي لطالما أفردتُ وقتي للسخرية منه. صديقاتها كنّ يغرن منها. إحداهنّ كانت تغار من زينب، ومن عاملة الهاتف، ومن العصافير التي تحطّ على الشبابيك خلال رحلات النهار. لديها أنف أفطس يشبه أنوف المهرّجين، كانت تزجّه أينما شاءت ومتى شاءت. كانت زميلة زينب كائناً مؤذياً، من ذلك النوع الذي يسبّب النظر إليه تقرّحات في المعدة. ولا أدري كيف كانت زينب تتحمّل النظر إليها. كرهتني صديقتها لأسباب لا أعرفها بالضبط، وغالب الظنّ أنّي كرهتها للأسباب نفسها. يقال إنّ العرب يؤمنون بالحبّ من النظرة الأولى

وهذا ليس ساذجاً كما يبدو، بل يمكن أن يكون حقيقيّاً فعلاً، ولكن هناك أيضاً الكراهية من أوّل نظرة، وهذا عميق وصحّيّ. انطبق هذا على زميلة أخرى من ملائكة زينب لم تكن تعرف شيئاً عن جذوري البولنديّة، ولا عن أنّ بيننا كرهاً قديماً وتاريخيّاً، يعود إلى جذورها الأوكرانيّة. كره لسنا مسؤولين عنه، لكن يبدو أنّه ما زال صالحاً.

كانت زينب مختلفة قليلاً وهذا بالنسبة إليّ بمثابة الاكتشاف وإن كانت تعاني بدورها، مثل الكثيرين، من مرض الانبهار. في أحيانٍ كثيرة فوجئت من انبهارها بما أو من وُجد في الأساس ليخيّب الأمل. كانت أكثرهنّ عرضةً للانكسار، من دون أن تدرك ذلك. لم يبدُ لي أيّ حديث بيننا مقنعاً، لم أستطع أن أصدّق كلمة واحدة ممّا قالته، لكنّي صدّقت كلّ انفعالاتها. اخترت أن أصدّقها لكنّه كان خياراً ملتبساً، وكان التصديق مشروطاً بالنهايات، تماماً كما يصدّق المحتربون أنّهم سينتصرون. كنّا في باستا دي كازا عندما أخبرتني أنّها تحلم بالتلفزيون. ويعني هذا المطعم لي كثيراً، إنّه المطعم الذي كنت الوحيد الذي يرتاده وحيداً. مكان صغير لدرجة أنّه لا يمكن التصديق من واجهته أنّه قد يكون مطعماً بالفعل. لطالما بدا لي أشبه بعلبة مقفلة، مضاءة بلمبات ملوّنة ورخيصة. لم تحقّق الواجهة أيّ جدوى من بريق النيونات الحديثة فحافظ المكان على نعمة الروتين. يقبع في مكانٍ عامر من المدينة لكنّه في الوقت عينه مقفر، وغالباً ما تلقي الشمس بألسنتها فوق برك ماء تتجمّع أمامه، تنعكس فيها صورة شرفة المبنى المقابل، الذي تهدّم في الحرب، ما يضفي على مدخله طابعاً كئيباً. في الداخل، الطاولات قريبة بعضها إلى بعض لكن لا أحد ينظر إلى أحد، ويكتفي الجميع بتحسّس الشراشف العاديّة جداً، التي تذكّر بمنازل الضواحي، وفُرشت على الطاولات لا لتضيف شيئاً إلى المشهد، بل لكي لا تتّسخ الأخيرة وحسب. شراشف وديعة،

بيضاء ومقلّمة بالأزرق، أخبرت زينب أنّها تسمّى بالإيطاليّة «بيانكو آتزورا» ولفتها الاسم لكنّها لم تستطع أن تحفظه. المطبخ هو الآخر كان قريباً من الطاولات، ولطالما شعرت بالامتلاء من رائحة الحبق التي تصل قبل غيرها إلى مقاعدنا غير الوثيرة. لم أشعر في حياتي بأهميّة الجلوس، كما شعرت مراراً، في باستا دي كازا، وأنا أتفرّج على الكوبلات يأتون متشابكي الأيدي ويخرجون بالطريقة ذاتها. ولا أفتعل نوعاً من الرومانسيّة هنا، كنت مثلهم، لكن في الأماكن الأخرى، لا في باستا دي كازا. كان المسجّل يبثّ بصوتٍ متحشرج «لا دانزا» لبافاروتي التي سجّلها في 1974. وكنت مأخوذاً بيد زينب في يدي، غارقاً في أسئلة وجوديّة تافهة عن جدوى الحداثة، وتمنّيت لو تتحوّل بيروت بأسرها إلى قاربٍ كبير، نرقص عليه أنا وزينب كفراشتين تطاردان ضوءاً بعيداً يفرّ إلى آخر المحيط.

في تلك الأثناء، كانت تخبرني عن التلفزيون. تريد أن تظهر في التلفزيون أو شيء من هذا النوع. وافقت على كلّ شيء، أومأت برأسي عشر مرّات تقريباً، لكنّي كنت مأخوذاً بطعم يديها في يدي، حيث مرّت أيدٍ كثيرة، ولم ترنّ جرساً في قلبي خارج معنى المصافحة. أخيراً، بيانو في يدي. شعرت بحنينٍ طويل لم أستطع الإفصاح عنه. انتهى اللقاء عاثراً، وغادرت زينب قبل الموعد، وفهمت لاحقاً أنّها لم تكن مرتاحة، من دون أن يؤثّر هذا عليّ إطلاقاً. لقد كنت أنا مرتاحاً جداً، ومثل هذه الأشياء لا تسير على نحوٍ آليّ. لاحقاً أيضاً سنشاهد الفراشة وهي تداعب اللامبادير المثبّت فوق السرير. سنستمع إلى أغنيات الحبّ الإيطاليّة الكثيرة، حتّى إلى البوب الرديء منها.

عندما اقتربت منّي أوّل مرة لتضع السمّاعة في أذنها، التصق خدّها بقلبي، ولكنّ صوت الدقّات لم يرتفع كما تقول الكتابات البائسة. احمرّ وجهي، وكان هذا كافياً لها، لكي تشعر بتفوّقٍ ستندم

عليه في ما بعد. على عكسي تماماً، كانت زينب تصوغ نظراتها بلا عجالة، ولكنّها مِثلي، إذا كذبت، كانت تكذب بحنانٍ رهيب.

ظهرت فجأة هكذا واختفت فجأة، وكانت إذا ضحكت في وجهي، شعرت بأنّي ذلك النابوليّ، الذي يغرس السكّين، لكن في بطنه هو، ويحتفل بالفلفل الحارّ. لقد كُنت روما بينما كانت زينب نابولي، وكان من حقها، بعد كلّ شيء، أن تخاف.

ذات مرّة كانت في صوتي حشرجة لكنّها لم تكترث. وتابعت حديثاً في غاية البؤس عن حقوق المرأة. أحياناً أشعر بأنّ المفردات استُنفدت وأنّ اللغة تلهث لإيجاد نعوت تناسب الإسفاف الذي تُعرض فيه مسائل الحقوق في العالم. تلك المفردات البغيضة التي تُستخدم، وهي أكاديميّة في معظمها، كأن يقال: جندر، ومفاوضات، وحلّ نزاعات، وخطّ أزرق... إلخ. يخالجني شعور دائم بأنّ الأمم المتّحدة مؤسّسة في غاية الفساد، ويساورني شعور جادّ بالشك تجاه كلّ ما ينتج عنها. غير أنّ هذا ليس في وقته الآن، ولن يكون كذلك في أيّ وقت آخر، الحقوق هي الحقوق، وينبغي أن يكون الإنسان في صفّها، مهما بلغت مبلغاً رتيباً. برّرت زينب كلّ شيء بحقوق المرأة وبالجنون. وجدَت الأمر سهلاً، والمصطلح عملاقاً، وقادراً على استيعاب جميع النزوات ثمّ تبديدها بسهولة. «هكذا، أنا مجنونة»، كانت تقول. في البداية كان الأمر مغرياً، ثمّ ما انفكّ يتحوّل إلى شباك علقت فيها كسمكة، وأنا أخشى الشباك. صنّفت زينب نفسها مجنونة، ولم أقوَ ولو لمرّةٍ واحدة على وضع تعريفٍ ثابت للجنون، لأنّي بطبيعة الحال، بالنسبة إليها، كنت مجنوناً بدوري. في الحقيقة، لسنا بحاجةٍ إلى كثير من الوضوح لنشرح الحقيقة التاريخيّة الآتية: الجنون ليس ترفاً.

المجنون ليس شخصاً يقول أنا مجنون. إنّه شخص لا يُعلن موافقته أو رفضه ولا يعترف بالسائد. المجنون هو الذي يخرج عقله

من دائرة العالم، الذي يتملّص من «السيستم»، ويفهم أعصاب الجدران. الجنون ليس دلعاً، ولا سلّم نجاة، ولا مدعاة يحقّ لأيٍّ كان أن يدّعيها للتنصّل من قول ما ينبغي قوله. إنّه ذلك الذي ينحت من العدم لحناً ويتنازل عنه فيتشاركه مع آذان الآخرين، أو الكاتب المتفلّت من نصوصه، الكاذب الكبير، صاحب الشجاعة التي لم تُقدّر بعد. المجنون هو الذي يرقص وحيداً في غرفة، ويضرب المرآة بيدتين عاريتين، ثمّ ينظر إلى الدماء ويضحك فاتحاً فمه كبوّابة. المجنون هو الذي يحمل الكاميرا بقلبه لا بيديه، ويصوّر غابات السيقان ويتوه فيها غير آخذٍ في الحسبان ردود فعل الناظرين. إنّه فيديريكو فيلليني، الذي لم يطلق لحية، ولم يرتدِ بنطلوناً متهدّلاً ولم يظهر في مظهر بغل. على سيرة الجنون، كان موزار يكتب القصائد إلى قريبته وأمّه، وكلّها قصائد عن مؤخّرته، حتّى إنّ إحداها اشتهرت. وبيتهوفن كان يزعق في الذين لا يعرفهم وفكّر بالسير عارياً غير مرّة. ومايكل أنجلو كان يعرف كلّ تجّار العصافير في روما. يذهب إليهم كلّ صباح، فيشتري العصافير ويستمتع بإطلاقها من الأقفاص. فان غوغ أطلق سراح أذنه. سالفادور دالي أراد أن يتزوّج القطط. المجنون ليس شخصاً يرتدي نظّارة حمراء، وبنطلوناً زهريّاً واسعاً، ويدخّن الماريوانا أمام الحانة. هذا بغل وليس مجنوناً. الجنون ليس باباً خلفيّاً، يسهل الخروج عبره من أيّ سجال، ولا ستارة تخبّأ خلفها عقد الأمر الواقع والخيال. المجنون كائن وحيد ورقيق، قابل للتلاشي على مراحل سريعة. يمكن أن تكسره نظرة زجاجيّة أطلقتها عينٌ صلبة، وأن تتشظّى عيناه على الملأ إذا تحوّل إلى شاهدٍ في لحظةٍ لم يرد أن يكون حاضراً فيها. المجنون، كما أخبرت زينب، في نهاية الحديث، ليس شخصاً يعرف أنّه كذلك. وكانت في صوتي حشرجة، كطرق الكمنجات في مقدّمة «غلوريا»، لأنطونيو فيفالدي، لكنّها تابعت دون أن تكترث.

فجأة انطلقت حنجرتي طالبةً من زينب أن تتوقّف. تحدّثت كما لو أنّي كنت صامتاً منذ شهرين، صرخت بأشياء لا أذكرها، لكنّي أذكر أنّها كانت سبباً في أن نفترق. في طريق العودة، تلألأت في وجهي أضواء الجبل البعيد، وشعرت بندمٍ هائل من النوع الذي يصير صرفه مستحيلاً.

***

سبب وحدتي أنّي لا أجد من أحدّثه عن قلق السحب العابرة وأحزان الدببة الضخمة. عادت حياتي بعد زينب إلى ما كانت عليه قبلها، أي إنّي عدت شرّيباً يحصي الطائرات التي تهبط في مطار بيروت الدوليّ، بين الخامسة والنصف عصراً والثامنة مساءً. أضع الووكمان في رأسي، وأنصت إلى فريديرك شوبان، يقرع بأصابعه على قلبي. أحياناً، من على سطح منزلي المرتفع نسبيّاً فوق مباني المدينة، رغم أنّه ليس أحدثها، كنت أرى بوضوح تامّ كيف تخمد المدينة ليلاً. تتحوّل إلى كتلة واحدة لكنّها مرنة وأطرافها كثيرة. دبٌّ عملاق يشاهد التلفزيون في غرفة الجلوس. أحياناً كنت أقرأ، أعدت قراءة المحاكمة لكافكا هناك، وودت أن أقفز في غير مرّة تحيّة لهذا الكاتب العظيم. قبل يومين قصصت شعري لكي تحبّه زينب، ولم أنتبه أنّ الشعر الطويل كان بالنسبة إليّ من أدوات الوحدة. آلمني هذا أيضاً. كان الهواء ثقيلاً على ارتفاع أربعة عشر طابقاً، حتّى في منتصف حزيران. وذات مرّة أفرطت في الكحول، فخلعت القميص وربطته بأسلاكٍ جافّة كأفعى ميتة، وصنعت طائرة من ورق، أرسلتها إلى السماء. لم أحكم شدّ السلك على القميص لكنّها نجحت. لو فشلت لربطت الشورت، كنت مصمّماً. عبرت طائرتي أمام عينيّ بين الأنتينات والصحون اللاقطة، العريضة لسوء الحظ. حلّقت عالياً، وطار القميص وطاردته بعينيّ

يهوي إلى الحيّ الملاصق، صار صغيراً واختفى. مات. عرفت أنّي عارٍ تقريباً من رياح قويّة بدأت ترقص في الأعالي، ففرحت بالعري. قلت أعود إلى شقتي، وأشاهد مباريات كرة القدم الباقية ليوم الأحد، وأرتدي قميصاً جديداً.

لم تصرخ جارتي في وجهي كما توقّعت، ولم تضحك أيضاً وهي تراني أنتظر كالمخبول وصول مصعد لن يأتي. فالكهرباء مقطوعة كالعادة. وهي خرجت تبحث عن أحد يرفع لها «الديجونتور». لم أنتبه فوراً أنّي نصف عارٍ في مكان يُعدّ في بيروت عامّاً، لكن سأكتشف لاحقًا أنّها هي انتبهت. صعدنا إلى السطح، لكي أرفع لها «ديجونتور» الكهرباء بعدما طلبت ذلك على نحوٍ لا يمكن رفضه. ذلك رغم أنّ الكهرباء تشعرني بالهلع، وأنّي لا أفهم في مثل هذه الأشياء. صعدت مفترضاً أنّ هذا سيكون تعويضاً عادلاً عن ظهوري على نحوٍ غير لائق. وتأكّدت من كوني لا أفهم شيئاً في مثل هذه الأمور عندما قالت لي الجارة ناهد ضاحكةً إنّ غرفة الكهرباء تكون في المدخل، تحت، في الطابق الأرضيّ، لا هنا على السطح. رغم أنّي كنت ثملاً فهمت فوراً ما الذي سيحدث، ولم تكن لي طاقة على منعه.

عندما نزلت، أخذت حمّاماً ساخناً، ساخراً من الصدف التي صنعت معنىً لنزولي من السطح عارياً.

شاهدت مباراة جميلة ولكنّي لم أكن متحمّساً. نهائيّ كأس إيطاليا، روما ضدّ نابولي، وانحزت إلى روما نكاية بزينب. كانت خسارةً ثقيلة لذئاب العاصمة، ولي شخصيّاً. في السرير وأنا أفكّر في زينب، شعرت برغبةٍ في الانتقام من الحكَم، الذي طرد لاعباً في بداية الشوط الثاني، لأنّه لمس الكرة بيديه. بدا لي الأمر قاسياً، وخاصةً عندما بكى اللاعب. وجدتني أنظر بدوري إلى مكتبتي وأبكي على اللاعب الذي يشبه أبي.

نهضت من السرير الذي صمّمته بنفسي وانكسر ثلاث مرّات في عام واحد، ووقفت في مواجهة الحائط تماماً. نظرت إلى صورته متحدّياً. كان له شاربان غير كثيفين (أبي لا الحائط)، عجزت عن أن أفهم من أين أتى بالشجاعة لكي يطلقهما. أعرف أنّ هذا كان دارجاً آنذاك، لكنّ وجه أبي كان مستديراً كالرغيف وصافياً كبحيرة، ولا يحتمل شاربين. يعتلي جسده الضئيل قميص بكمّين قصيرين، على عكس قميصي الذي حلّق إلى روح أبي قبل ساعات، وقد فُتح أوّل زرّين منه، تعبيراً عن «رجولويّةٍ» كانت مألوفة في تلك الحقبة البوهيميّة. وقد كانت بوهيميّة إلى درجة أنّ سالفيْ والدي كانا يضحكانني، وأشعر برغبة في لمسهما في الصورة كلّما نظرت إليها، للتأكّد من أنّي لم أخترعهما، وأنّ والدي تركهما ينموان كجذع سيكوايا. فعل ذلك بملء إرادته فعلاً، لقد كان الأمر دارجاً، تماماً كالانتساب إلى الحزب الشيوعيّ. الانتساب الذي قتله على محور الماليّة، وانتهى بي متدرّباً على البيانو في وارسو، مع جدٍّ أفتقده كثيراً، وجدته ميتاً على شرفة العالم. كنت في الثانية عشرة من عمري فقط، عندما عدت إلى أمّي في بيروت.

***

أراد يوزيف لابنه فادي، أي أبي، أن يكون عازف بيانو، مثله. ولكنّ أبي اختار قتال الاسرائيليّين عندما دخلوا بيروت الغربيّة في حزيران 1982، بعدما تلقّى عدّة دورات تدريبيّة في الحزب، أبي اليهوديّ، مع الفلسطينيّين، مطلع الحرب الأهليّة اللبنانيّة. إحدى القصاصات القليلة التي تركها، كتبت عليها تلك الجملة الشهيرة، التي أذاعتها «جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة» في أيلول العام نفسه، بعد اجتياز الإسرائيليين معبر المتحف باتجاه قصقص والطيّونة وصبرا

وشاتيلا: «إلى السلاح». وكانت جملة أكرهها على ذات القدر الذي أحبّ أبي عليه بالضبط. أكاد أجزم، وأنا أنظر إلى هذا الرجل، الذي أشبهه كثيراً، أنّه كان يمكن أن يكون عازف بيانو أفضل منّي، معترفاً في الوقت عينه، بأنّي لن أكون مقاتلاً جيّداً، وسأهرب فوراً. كان عمر أبي في الصورة 21 عاماً وأنا اليوم يصير عمري ثلاثين. افتقدت ما لم أعرفه. افتقدت أبي.

نظرت إلى ساعة الحائط، فانتبهت إلى أنّ العقارب تجاوزت منتصف الليل. لقد أصبحت أكبر من أبي بكثير، وصار هو ابني.

***

في 12 تمّوز 2006، هاجم الإسرائيليّون لبنان مجدّداً. وكان الأمر بالنسبة إليّ، هجوماً على ذاكرتي وعلى أبي: نور انتحرت. زينب انتهت. وليا جاءت لتحرّك فيَّ مياهاً راكدة ثمّ تبخّرت. لقد صادر الإسرائيليّون مستقبلي، بعد أن قضوا على أبي.

في اليوم التالي حجزت تذكرة سفر، وقرّرت العودة إلى وارسو، العودة إلى جدّي. وفي اليوم الثالث، فتحت التلفزيون لأودّع بيروت كما ودّع جدّي وارسو أيّام جدار برلين والحرب الباردة، بطريقةٍ غير لائقة. أكره نشرات الأخبار في بيروت، أردت أن أكره بيروت. قلت سأعود مهما كلّف الأمر، وتوجّهت إلى المطار يرافقني جيش من الأشباح: جدّي، اليهوديّ التائه، أبي، الضحيّة العابرة، ليا التي استغلّتني لمعرفة أخبار نور، نور التي استغللتها بدوري لإشباع نزواتي، ولم أعِ الاستغلالين إلّا متأخّراً.

رافقني أبي الذي لم أره إلّا في صورة. ورافقني جدّي لكن ليس مع جدّتي ماري، بل مع امرأة لا أعرفها اسمها آلونا. رأيت صورة آلونا

مرّةً واحدة، في دفتر جدّي وحفظتها. آلونا، التي كانت زينب نسخة عنها، كما لو أنّها خرجت من رحمها تماماً.

تخطّيت حاجز الأمن العامّ اللبنانيّ، ووصلت إلى قاعة الانتظار قبل ركوب الطائرة، حيث جلست على مقعد يبدو أنّه كان مخصّصاً لعائلة سعيدة. أطلّ رجل ملامحه مألوفة، لم أتأكّد من هويّته إلّا بعد أن اقترب وصافحني بحرارة ثمّ جلس بجانبي في مقعد الانتظار الذي شغلته. تحدّثنا عن موزار وباخ وبيتهوفن، وسط ذهولي الشديد. وقبل أن ينهي المحادثة سألني بودٍّ لافت: «صحيح، هل لمحت ليا؟ لقد كانت هنا قبل قليل».

ابتسمت في وجه ماريو سريعاً وأنا لا أزال مشغولاً بالنظر إلى الهاتف الملعون الذي يوشك على تمزيقي بين قارّتين. بين زمنين. يوشك على هزمي برسالة من كلمة واحدة. «وينك؟» كتبت لي زينب، فيما كان المايكروفون في المطار يصدح: «النداء الأخير إلى ركّاب الرحلة رقم 202 المتّجهة إلى وارسو».

مكتبة أهد

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

وارسو قبل قليل — ليس فريدريك شوبان بطل هذه الرواية، لكنّه روحها، يظهر فيها عابراً بين عابرين. يوزيف، اليهودي الذي وفّره الموت النازي في بولندا سكن منزل شوبان، وشوبان سكن روحه.

لاحقاً، سيهجر اليهودي التائه وارسو مدينةً تتعثّر بذاكرتها، كما سيرفض الانتماء لوطنٍ مستحدَث جعل من ضحايا أبناء جلدته جلّادين، لينتهي به المطاف في بيروت البعيدة، حيث يقيم ويُنشئ شيئاً يشبه العائلة.

عائلةٌ لن يبقى منها سوى حفيد، جوزيف، الذي ستعزف أنامله مجدّداً، على أرضٍ أخرى وفي زمنٍ آخر، لحن الموت.

هذه رواية عن بطل في زمن تشوّهت فيه معاني البطولة، وعن حفيد ورث روح عازفٍ ورقّة ضحية، فتمزّق بين وطنين وهويّتين و... أكثر من امرأتين.

جوزيف ورث كلّ أسئلة الهويّة عن جدّه. ورث عنه التيه، كما ورثته بيروت عن وارسو.

«هذا كاتب يولد. كاتب قصّة وشاعر. متمرّد ورقيق. وشفّاف مقهور قاهر. شراراته منه وفيه.» — أنسي الحاج، الأخبار

مكتبة ٣١٢

© Marwan Tahtah

أحمد محسن — كاتب لبناني، مواليد عام 1984. إلى جانب عمله في الصحافة المحلية منذ تخرّجه من كلية الإقتصاد في الجامعة العربية ببيروت، نشر أحمد محسن نصوصاً أدبية وقصائد في مطبوعاتٍ أدبية وثقافية متخصّصة. «وارسو قبل قليل» هي عمله الثاني بعد «صانع الألعاب»، المُدرجة على اللائحة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب 2014-2015، فرع المؤلّف الشاب.

ISBN 978-614-438-234-9
9 786144 382349
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان A.